الأزمات الاقتصادية في مصر الفاطمية

م. م. عمر سلهم صديق آل صالح بك
جامعة الموصل / كلية علوم الإسلامية / قسم أصول الدين

ملخص البحث

شهدت مصر أيام الخلافة الفاطمية العديد من الأزمات الاقتصادية التي جوعت الناس ونشرت الجريمة وذهب ضحيتها الآلاف وقد تناولت أغلب الدراسات تلك الأزمات وعللتها بانها نتيجة لانخفاض نهر النيل وهي في الحقيقة نتيجة لخلل في نظام الفاطميين الاقتصادي ، ونتيجة لضعف الدولة الفاطمية وطبيعة الخلفاء الذين أنفقوا بترف كبير وإسراف فبددوا أموال الدولة وأهملوا مشاريع الري وكثرت في عهدهم الفتن والاضطرابات فانعدم الأمن وتوقفت الزراعة فكانت المجاعات والبحث هو عرض وتحليل لأسباب تلك المجاعات .

ABSTRACT

Egypt under the Fatimid Caliphates witnessed a number of economic crises that led to famine and the spread of crimes. These crises resulted in thousands of victims in the country during this period. Most studies that investigated these crises attributed them to the low level of the Nile river during this period but in fact the crises were a result of the failures in the Fatimid system stemming from the weakness of the Fatimid caliphs and the nature of the caliphates who squandered the countries wealth while neglected important projects. Disruptions and strife increased during their reign leading to a lack of security and a halt in agriculture which consequences was famines. The study presents and analysis the reasons behind theses famines.

مقدمة

شهدت مصر تحت حكم الفاطميين (٣٥٨هـ/٩٦٩م-٥٦٧هـ/١١٧١م) العديد من الازمات الاقتصادية التي ذهب ضحيتها الالاف من المصريين نتيجة الجوع والقتل والهجرة التي نتجت عن المجاعات, وقد اخترت البحث في أسباب تلك الأزمات على الرغم من وجود دراسة عن الموضوع لأن تلك الدراسة ــ وهي للدكتور أحمد سيد الصاوي وعنوانها: (مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج)ــ اعتبرت نقص مياه النيل السبب الرئيس للأزمات، الأمر الذي تنفيه الوقائع وينفيه مستوى مياه النيل في أثناء تلك الازمات, فبعد البحث تبين أن الأسباب الحقيقية التي أجاعت مصر أعمق من قضية فيضان النيل وعدمه، وهي كامنة في طبيعة الدولة الفاطمية ونظمها وطبيعة خلفائها ووزرائها وفساد بعضهم, كما أن تلك الدراسة قد مزجت بين الأسباب والنتائج وأحيانا أحلت أحدهما مكان الآخر كاعتبارها المجاعة سببا لضعف الخلافة في حين أن ضعف الخلفاء أدى إلى تسلط وزرائهم عليهم وإلى حدوث فتن وقلاقل كانت أكبر أسباب الأزمات .

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى مبحثين:

أما المبحث الأول: فكان بعنوان الأسباب الاقتصادية للأزمات، وضمّ خمسة مطالب:

الأول: في ترف القصر وفساد بعض الخلفاء، وسلّط الضوء على بذخ الفاطميين وإسرافهم الذي بدد ثروات مصر كما بينت فساد بعض الخلفاء الفاطميين وانشغالهم باللهو والخمر عن أمر رعيتهم.

أما المطلب الثاني: فعنوانه اتراف الوزراء وفسادهم ، وبينت فيه دور الخلفاء في اتراف وزرائهم بكثرة الاموال الممنوحة لهم والاقطاعات كما بينت فساد أولائك الوزراء المالي وتعدّيهم على غير حقوقهم باختلاس أموال الدولة والجشع في جمع الثروات.

وجاء المطلب الثالث: بعنوان الاحتكار، وبيّن أثر احتكار الوزراء والتجار وأحيانا الخليفة للأقوات على حدوث المجاعات على الرغم من فيضان النيل ووفائه .

أما المطلب الرابع: فعنوانه الضرائب، فيه إحصاء عدد الضراب التي فرضها الفاطميون وطبيعتها وبيّن أنها أثقلت كاهل المواطن المصري ولا سيما الفلاح ، واستنزفت اموالهم وتركتهم فريسة الجوع.

أما المطلب الخامس: فعنوانه إهمال كري الأنهار، وهو يوضح أهمية كري الانهار والترع واصلاح السدود لتحقيق أعلى منفعة من مياه النيل وكيف أن الدولة أهملت ذلك فكان سببا للأزمات وليس نتيجة كما اعتبرها الدكتور أحمد سيد الصاوي .

أما المبحث الثاني: فعنوانه الأسباب السياسية للأزمات، وهو من مطلبين:

الأول: ضعف الخلافة والمشاكل الداخلية ، وفيه تحليل وبيان لمواطن الضعف في شخصية كل خليفة من الخلفاء الفاطميين سواء أكان ضعف بسبب حداثة العمر أو ضعف في التدبير والتخطيط والتنفيذ, كما تناول مشاكل القصر من تدخل النساء في أمور الحكم والمؤامرات التي تمت وأيضا تعدد طوائف

الجند في الدولة وانفلاتها من سيطرة الخليفة وتحولها الى سلاح فتك بالمصريين نهبا وتقاتلا ونفقات, كما تناول تمرد الوزراء واستئثارهم بالسلطة.

أما المطلب الثاني: فخصص للسياسة الخارجية للفاطميين مع العباسيين والروم والاحباش من حيث كون تلك السياسة سببا لوقوع الازمات الاقتصادية.

ويعود فضل انجاز البحث للعديد من المصادر التي أرّخت لدولة الفاطميين وأبرزها كتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م والذي أبدع في نقل احداث المجاعات ودعّم روايته بتحليل عميق لاسباب وقوعها بتجرد المؤرخ الرصين ذي الفهم والدقة في كشف مسببات الاحداث, كذلك كتابه (اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا) والذي قدم فيه معلومات أوسع من مجرد أسباب الازمات بل روى تفاصيل تاريخ الفاطميين في مصر.

كما أفاد البحث من الكثير من المراجع الحديثة والتي أسعفته بنقلها مما تعذر الوقوف عليه من مخطوطات أو مطبوعات ككتاب ابن ميسّر المؤرخ المصري الشهير.

وأتقدم بالعرفان والدعاء لكل من نقلت عنه مما خط قلمه من علمائنا وأسال الله لهم احتساب ما كتبوه علما نافعا بقي لمّا ذهبوا ليضاعف الحسنات بميزانهم فيرفع مع تحقق كل منفعة درجاتهم فهو الذي لا يضيع عنده أجر من عمل صالحا, كما وأشكر وأدعو بالدعاء نفسه لكل من آخاني بغير نسب وأعانني لغير كسب إلا حبا في الله ثم تعبيرا عن طيب تأصل في نفسه فانعكس على تصرفه.

وأخيراً ، لما كان التاريخ يتناول أفعال الناس الماضية فهو ليس ككل العلوم مسؤلية, فلا الفيزياء تعترض إن ظلمتْ ولا الأرض تشتكي إن أنقصت أو أخفضت ورفعت , فيا من سخرني لهذا واكرمني بانجازه أعوذ بك ان اكون ملت لهوا او جانبت حقا بعد ما عرفته او ظلمت رجلا, واسالك رضاك وتسديدك لما خط قلمي فالناس تمضي ويبقى ما أمضى القلم.

تمهيد

قصور النيل أول الأسباب قفزا إلى ذهن كل من يبحث في أسباب أزمات مصر الاقتصادية في الدولة الفاطمية فيجعله المسبِّب الرئيس لكل غلاء ومجاعة حلّت بمصر, إلا أن من يبحث بعمق ويتتبع أخبار النيل في مختلف مراحل تاريخ مصر يجد أن عزو الغلاءات والمجاعات إلى القصور في فيضان النيل السنوي هو استنتاج فيه شي من السطحية في تحليل الأحداث التاريخية، والأخذ بظاهر الأمور التي قد تخدع , فالنيل قديم بقدم مصر ومنذ خلقه الله وهذه طبيعته, يفيض أعواما ويوفي فيزرع الناس ويزداد المحصول، وينخفض مستوى فيضانه في سنين أخرى فتقل المساحة المزروعة من الأراضي أو تنعدم , فعدم استقرار مستوى النيل هو أمر ثابت أما المتغير فهو حدوث الغلاء والمجاعة أو عدمه. وبعبارة أخرى: إن النيل في كل العصور يفيض وينخفض ويزداد مستوى المياه فيه ويقل إلا انه ليس في كل العصور والفترات حصلت الغلاءات والمجاعات, فلا يمكن أن يكون دائم الحدوث سببا لمتقطع الحدوث , فالعلاقة بين قصور النيل والغلاء والمجاعة ليست طردية ، فهناك الكثير من الغلاءات والمجاعات حصلت في سنوات كان مستوى النيل فيها عاليا قد بلغ حد الوفاء المعتاد في مصر أيام الفاطميين والعكس من ذلك فقد مرت أعوام على مصر شهدت فيها استقرارا اقتصاديا على الرغم من قصور فيضان النيل .

مصر هي هبة النيل ولا يمكن لها أن تعرف زراعة واستقرارا اقتصاديا لولاه , إلا أنه وجب على كل من حكم مصر أن يحسن التعامل مع هذه الهبة وفهم طبيعتها وإتباع نظاما اقتصاديا يتسق مع تلك الطبيعة إذا ما أراد أن يجنب شعبه الجوع, فالنيل كباقي الموارد الاقتصادية إذا ما أسيئ استخدامها حدث القصور والخلل الاقتصادي فلو أساء بلد ما استخدام الموارد النفطية وحدث عجز اقتصادي لا يصح أن نقول إن سبب العجز قصور النفط بل سبب العجز سوء استخدام النفط وخلل في المنظومة الاقتصادية للبلد.

لذلك كله كان البحث في النظام السياسي والاقتصادي المصري أيام الدولة الفاطمية حتميا لمن أراد كشف أسباب الغلاءات والمجاعات الحقيقية, وتلك الأسباب كامنة في تلك النظم وفي شخصيات الخلفاء ووزرائهم وخاصتهم وآل بيتهم وفي كيفية إدارة موارد الدولة والتصرف بها, ففي كثير من السنوات النيل وفّى إلا أن حكّام مصر لم يوفوا فكان الجوع .

والمقصود بحدِّ وفاءِ النيل هو الحد الذي تصله مياه النيل ارتفاعا فتروي المساحة الكافية من الأراضي لإنتاج ما يسد حاجة السكان, فعند الفتح الإسلامي لمصر كان حدّ وفاء النيل أربعة عشر ذراعاً تسد الحاجة وتنجي من المجاعة وستة عشر ذراعاً تنتج ما يكفي لسنة أخرى ، أما لو وصل إلى الثمانية عشرة ذراعاً فهو الفيضان ولو نقص عن الأربعة عشرة فهو القحط[١], وحدّ الوفاء ليس ثابتا في كل الفترات التاريخية بل متغيراً وسبب التغيّر أنه بعد الفتح الإسلامي وبسبب هجرات العرب المسلمين إلى مصر والزيادة الطبيعية لعدد السكان ولاسيما بعد سيطرة الفاطميين على مصر واستحداثهم للقاهرة وآلاف المغاربة[٢] الذين أتوا معهم إلى مصر كل ذلك جعل المساحة التي يتيح حد الوفاء السابق زراعتها غير كافية لسد حاجة السكان في مصر الفاطمية, فتوسع البلاد وزيادة مساحة الأراضي المزروعة بسبب زيادة السكان أدى إلى اختلاف حد الوفاء, وأنا استبعد أن اختلاف حد

الوفاء هو "**بسبب ترسبات الطمي الذي يجلبه الفيضان مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب التربة**" [٣], فلو كان ترسب الطمي قد زاد ارتفاع تربة الارض خلال خمسمائة سنة ما يقارب الذراعين فكم يجب أن يكون ارتفاع الأراضي ألان؟.

أما عن حد الوفاء في دولة الفاطميين فاستقراء مستويات النيل سنوات حكم الفاطميين يبين أن خمسة عشر ذراعاً كافية لسد الرمق والنجاة من القحط[٤], وستة عشر ذراعا هو حد الوفاء الكافي لزراعة اغلب الأراضي[٥], ولذلك منع المعز لدين الله (٣٤١ هـ/٩٥٢م-٣٦٥هـ/٩٧٥م) المناداة بحد وفاء النيل إلا إذا بلغ الستة عشر ذراعاً[٦], ولو بلغ الحد الذراع السابعة عشر فذاك يعني زراعة كل أراضي مصر وعموم الخير تلك السنة[٧], وصولا إلى الذراع الثامنة عشر والذي يعني الفيضان وغرق بعض الأراضي المنخفضة [٨].

وقبل البدء بعرض أسباب الغلاءات التي اجاعت المصريين في الفترة الفاطمية لابد من تصحيح مفهوم ومصطلح قد باتا بحكم الحقائق الراسخة في اذهان الناس حتى بعض المثقفين منهم ولا انكر اني كنت واحدا من ذلك البعض, فلو سئل أي انسان اين تصنف مصر؟ من الدول الغنية ام الفقيرة؟ لكان جواب الغالبية: مصر دولة فقيرة، مواردها محدودة ، وارضها صحراء يقطعها النيل وهو بالكاد يسد رمق اهلها ان وفى وفاض, فاكبر مشكلات المصريين منذ اقدم عصورهم الى وقتنا الحالي هي الحصول على رغيف الخبز بسعر مقدور عليه وبلا الطابور الذي اصبح الوقوف فيه ركناً من اركان الحياة المصرية اليومية.

والحقيقة ان مصر ليست فقيرة بل هي وعلى مر عصورها مقصد كل طالب ثروة سواءً الدول او الافراد , فالفاطميون انفسهم من جملة ما دفعهم لدخولها هو غناها وتعدد مواردها من زراعة وتجارة وصناعة, وقد يتفاجأ من يقرا وصف الخليفة العباسي المتوكل لها بانها: "مصر مصر هي سلة الخبز" [٩], أما أحد ذوي الخبرة من الذين احترفوا العمل في الخراج في بلاد الشام فقد قال:" كشفتها فوجدت عامرها اضعاف غامرها ولو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا"[١٠]. هذا فيما يخص المفهوم الخاطئ .

أما المصطلح فهو اطلاق كلمة قحط على الازمات التي ضربت مصر الفاطمية فالقحط كما هو معروف احتباس المطر وجدب الارض وافتقاد المحصول من البلد, يقال اقحطت الارض[١١], وليس هذا الذي كان في معظم ازمات مصر ايام الفاطميين ففي معظمها كان المحصول محتكر في المخازن فارتفعت الاسعار وما ان تقوم الدولة باجراءات ترغيب او ترهيب حتى يظهر المحصول وتنتهي الازمة كما سنبين خلال صفحات هذا البحث, وفي كثير من تلك الازمات كان النيل قد وفى او على الاقل لم يبلغ انخفاضه الحد الذي يسبب القحط, فالادق إذن استعمال كلمة غلاء بدل قحط، وهذا ما فعله المقريزي في كلامه عن ازمات مصر الفاطمية حيث اسماها غلاءات مصر[١٢], فهي مجاعات سبَّبها الغلاء وليس القحط .

قلنا: إن أزمات الغلاء والمجاعات في مصر لها أكثر من سبب وفيما يلي عرض وتحليل لتلك الأسباب:

المبحث الأول

الاسباب الاقتصادية للازمات

المطلب الاول / ترف القصر وفساد بعض الخلفاء

اعتاد كل من يكتب في اسباب ازمات مصر الاقتصادية دراستها منفردة مقتطعة زمانيا عما قبلها بوصفها طارئ حل في النظام الاقتصادي, بينما النظام الاقتصادي لكل دولة يتكون من اركان مترابطة يؤثر بعضها في بعض وهذا التاثير يظهر في ضوء عامل الوقت, فالنمو الاقتصادي مثلا لا يحدث خلال سنة ولا اثنتين بل هو نتاج تخطيط اقتصادي ناجح تظهر اثاره خلال سنوات وكذلك التباطؤ والتراجع في الاقتصاد هو نتاج خلل او ضعف في السياسة الاقتصادية ينخر في اقتصاد الدولة فينهكه وينتهي به الى الازمات والانهيار الكامل, واهم اركان أي نظام اقتصادي هو النفقات والايرادات, والموازنة بينهما وضبطهما له اكبر الاثر في تحديد حالة الاقتصاد آنيا ومستقبليا, فترف واسراف اليوم يؤديان الى فاقة الغد, او كما يقول المصريون: القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود. كما حدث للفاطميين حين ازال ترف خلفائهم الاول النعم عن المتاخرين ليصل الحال باحدهم وهو المستنصر(٤٢٧هـ/١٠٣٦م-٤٨٧هـ/١٠٩٤م) الى الجلوس في قصره على بساط على الارض وان ياكل من صدقة ترسلها له احدى نساء القاهرة[١٣].

الترف هو السمة الاوضح في حياة الخلفاء الفاطميين بل هم مولعون به[١٤], ولكي لا اتجنى عليهم اقول: انه باستثناء البعض القليل جدا ممن حكم الدول الاسلامية والعربية من بعد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الى يومنا هذا هم مولعون بالترف ، فكل حاكم يسخّر الدولة ومواردها وشعبها لاضفاء العظمة والهيبة عليه ولاشباع شهواته وبشراهة مهما كان حال دولته وشعبه من الحاجة والفقر ولا يعبا بمن سيحكم بعده وبما سيخلفه له من خزانة فارغة وديون ولكي نعرف اين ذهبت ثروات مصر ولماذا عاش ابناؤها اياما لا يجدون ما ياكلون سنعرض النفقات الهائلة للقصر الفاطمي والخليفة واقاربه .

كان للخلفاء الفاطميين احتفالات ثابتة يقيمونها كل سنة تعرف بالرسوم وهي كثيرة العدد وحرصوا على اظهارها بوافر من الترف والابهة ابرازا لمكانتهم كخلفاء(شرعيين) للمسلمين, فكان يحتفل بجلوس الخليفة في مجلسه العام، وله في السنة ثلاث جلوسات تزين فيها قاعة القصر ويستدعى الوزير والقضاة والامراء وارباب الدواوين والقراء الذين يقرؤون القرآن بحضرة الخليفة ولكل من هؤلاء وقت معين وطريقة للدخول الى القصر والسلام على الخليفة, والنوع الاخر من جلوسات الخليفة هو جلوسه في ليالي (الوقود الاربع) من كل سنة وهي ليالي الاول والنصف من شهري رجب وشعبان ويحضر هذا الاحتفال كبار رجال الدولة ويخطب فيه الخطباء ويقرأ القراء وطبعا تزين الطرق المؤدية الى القصر وقاعة الاحتفال بافخم انواع الزينة[١٥], وكذلك يجلس الخليفة في يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم حيث يحضر الاحتفال ايضا كبار رجال الدولة وتغلق الطرق المؤدية الى القصر لمرورهم بعد ان تنظف وترش بالماء ويصنع في ذلك اليوم ثلاثمائة صينية من الحلوى الفاخرة توزع عليهم[١٦].

والنوع الثاني من احتفالاتهم هو ما يعرف بركوب الخليفة أي خروجه من القصر بموكب عظيم على راس مئات من جند التشريفات بكامل سلاحهم ومراكيبهم وبحضور كبار رجال الدولة, ويكون ركوب الخليفة في مناسبات معلومة من السنة منها ركوبه في اول يوم من السنة حيث يخرج من قصره وحوله نحو الف رجل من الجند غير الوزير والامراء وقوة من الجند تسبقه في طريقه لفتح الطريق وابعاد العامة ليقوم بجولة في القاهرة ويصلي في احد جوامع القاهرة ويعود الى القصر مع كل موكبه ورجاله حيث يقوم بتوزيع (الغرة) وهي دنانير قد ضربت لهذا اليوم خصيصا على كل من حضر الموكب من رجال الدولة والجند كل حسب مكانته, وكذلك ركوبه في اول رمضان وبنفس تشريفات ومراسيم الركوب الاول, والركوب الثالث في الجمع الثلاث من رمضان ما عدى الاولى, ويقيم الخليفة في القصر من اليوم الرابع من رمضان وحتى السادس والعشرين منه مأدبة عظيمة فيها شتى انواع الطعام لأمرائه وقضاته وقواده وجنده[١٧], وترسل الحلوى في رمضان الى بيوت الامراء والمقدمين" لا يبقى امير ولا مقدم الا وياتيه طبق لنفسه ولكل واحد من اولاده ونسائه، طبق فيه انواع الحلوى العجيبة الفاخرة"[١٨], والخروج الرابع في العيدين حيث يخرج بنفس الموكب العظيم لصلاة العيدين ثم يعود الى القصر ويذبح الذبائح كل يوم سبع وعشرون رأساً توزع على الامراء ثم يقام مأدبة كبيرة تحوي قرابة الاربعمائة خروف مشوي والاف الطيور من الدجاج والحمام ياكل منها افراد الموكب وياخذون ما تبقى الى بيوتهم[١٩].

اما الخروج الخامس للخليفة فهو يوم اعلان وفاء النيل حيث يذهب بموكبه الى مقياس النيل يصلي ركعتين ويعود الى قصره والناس مجتمعون في مراكب ليشاهدوا الخليفة ويحضروا الاحتفال[٢٠], وبعد هذا الاحتفال باربعة او خمسة ايام يخرج الخليفة بنفس الموكب الضخم الى خليج القاهرة وهو سد يفتح عند وفاء النيل ليبدأ ري الاراضي وتقام عند الخليج خيمة عظيمة للخليفة وبجوارها خيام الوزير والامراء واصحاب المراتب كل خيمة حسب مرتبة صاحبها وتقام مادبة كبيرة من كل انواع الطعام وينتهي الاحتفال بانتهاء اليوم حيث يعود الى قصره وينفض الموكب[٢١].

فضلا عما سبق فالخليفة يخرج كل يوم سبت اوثلاثاء بنفس الموكب يتجول في المدينة ويصلي في احد جوامعها ويعود الى قصره[٢٢], وعلى الرغم من كل هذا البذخ والمبالغة فهناك من اثنى على الخلفاء الفاطميين وامتدحهم لانهم "اضافوا للحياة بهجة باحتفالاتهم وبذخهم"[٢٣], فربما يقصد اضافوا البهجة لحياتهم هم لان البهجة لا تجد طريقها الى قلوب المصريين بتنعم خلفائهم وبذخهم وهم يعانون الازمة تلو الازمة ويصارعون الجوع.

لم تقتصر مظاهر ترف واسراف الفاطميين على الاحتفالات فقط بل تعدتها الى كثرة القصور وضخامتها وفخامة اثاثها[٢٤], ترف وصل الى حد تطعيم انية الطبخ في القصر بالجواهر[٢٥], والغريب ان يعتبر احد المؤرخين ذلك سببا لتطور صناعة الزخرفة العربية[٢٦], اما عن عدد الخدم والجواري في قصر الخليفة الفاطمي فيقول ناصر خسرو: انهم قرابة الثلاثين الف ادمي[٢٧] , هذا غير الموظفين

والجند فلنتصور كم مقدار ما ينفق عليهم من رواتب وطعام على مدار السنة في ضوء كلام المقريزي: "وكانوا يتانقون في المآكل حتى ان الخادم والسائس من غلمانهم ينفق في كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين دينار"[٢٨], كما اعتاد الفاطميون على كسوة كل رجال الدولة صيفا وشتاءً ويقدر المقريزي كلفة تلك الكسوة بستمائة الف دينار سنويا[٢٩].

كذلك اولع الفاطميون بالذهب والجواهر فكان المعز لدين الله يجلبها من اليمن وبلاد الروم[٣٠] فيرصعون بها كل ثيابهم واثاثهم وستائر القصور ويحدد المقريزي وزن ما رصع به السرير الذي يجلس عليه الخليفة فقط بمئة وعشرة الاف مثقال من الذهب الخالص[٣١], ومن الناحية الثانية يتشدد المعز سنة ٣٦٢ه/٩٧٣م باستحصال الخراج من الفلاحين لانه اراد تعويض ما انفق من اموال على مصر ليدخلها[٣٢].

كذلك عرف الخليفة ابو منصور نزار العزيز(٣٦٥ه/٩٧٦م-٣٨٦ه/٩٩٦م) ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر بنفقاته الباهضة حيث اصدق امراة تزوجها مائتي الف دينار وخلع على الكاتب الذي كتب الكتاب الف دينار وخلع على القاضي والشهود[٣٣] , اما عدد جواريه فقد بلغ عشرة الاف جارية , ومبلغا عظيما من المال ينفق كل يوم على مطبخه ومائدته, وكان يعلف له باليوم عشرون الف راس من الخيل[٣٤] .

اما الحاكم بامر الله(٣٨٦ه/٩٩٦م-٤١١ه/١٠٢١م) فمما اشتهر به من الصفات الكثيرة الكرم, ولكني اظنه قد جاوز الخط الرفيع الذي يفصل الكرم عن الاسراف في نفقاته على كل من يقدم مصر وذلك لكسب تاييد الناس واكثار عدد المؤيدين للدعوة الفاطمية وهذا كان هدف الفاطميين الاستراتيجي الذي انفقوا في سبيله اموالا طائلة, واسراف الحاكم دفع وزيره لرفع كتاب اليه يحثه فيه على ترشيد الانفاق الذي يستنفذ فائض الخزانة: "ان لم يغلق باب القبول عمن هاجر الى الدعوة النبوية لم يبق احد في مشارق الارض ومغاربها الا وهاجر اليها, وكان ما يدفع اليهم يستغرق فضول الارتفاع" [٣٥] ,ويوم مرض الوزير ابو الحسن علي بن جعفر بن فلاح عاده الحاكم ومنحه خمسة الاف دينار[٣٦], ويبدو ان الترف لم يقتصر على الخلفاء بل تعداه الى نسائهم حيث خلفت ابنة الحاكم (ست مصر) ثمانية الاف جارية وثمانين زير مسك وكان مبلغ اقطاعها السنوي خمسون الف دينار, اما عمة الحاكم رشيدة بنت المعز والتي ماتت في خلافته فخلفت "ما قيمته الف وسبعمائة الف دينار وثلاثون الف ثوب خز, واثنا عشر الف ثوبا من الثياب المصمتة الوانا, ومائة قطرميز مملوءة كافورا"[٣٧], وماتت بعدها بثلاثة ايام اختها عبدة بنت المعز وخلفت "ما لا يحصى"[٣٨], وقد كان الكرم متبادلا بين الخليفة ونسائه فهذه ست الملوك تهدي اخاها الحاكم " ثلاثين فرسا مسرجة, احدها مرصع والاخر بلور وبقيتها ذهب, وعشرين بغله مسرجة ملجمة , وخمسين خادما منها عشرة صقالبة , ومائة تخت ثياب وتاجا مرصعا وشاشية مرصعة واسفاطا كثيرة من طيب وبستانا من فضة مزروعا من انواع الشجر"[٣٩].

كل هذا الترف والبذخ للحاكم واهل بيته يدفع للتسائل لما لم ينفق على استيراد القمح من خارج مصر التي شهدت في سني حكمه ازمات خانقة اولها سنة ٣٨٧ه/٩٩٧م حيث ارتفعت الاسعار وندر الدقيق في الاسواق وافتقد الامن "واخذت النساء من الطرق وعظم الامر"[٤٠], ولم يصب المقريزي عندما قرر ان سبب هذا الغلاء هو نقصان النيل فهو بنفسه يذكر ان حد النيل لهذه السنة وصل الذراع السادسة عشرة واصابع[٤١], اما ابن تغري بردي فيحدد تلك الاصابع بسبع بعد الذراع السادس عشر[٤٢], ووفقا لكل تقديرات حد النيل فان ستة عشر ذراعاً وسبعة اصابع لا تنذر بالغلاء والقحط فكثيرة السنوات التي كان فيها حد الوفاء ستة عشر ذراعاً واحيانا خمسة عشر ذراع ولم يحصل غلاء, فالمقريزي يذكر في حوادث سنة ٣٦٨ه/٩٧٩م ان حد النيل كان خمسة عشر ذراعاً وتسعة عشر اصبعاً ولم يحدث غلاء تلك السنة وكذلك سنة ٤٠٢ه/١٠١٢م حيث بلغ حد النيل ستة عشر ذراعاً ويستخدم المقريزي عبارة أوْفَى النيل[٤٣], فما سبب غلاء سنة ٣٨٧ه/٩٩٧م اذن؟ يروي لنا المقريزي نفسه تفاصيل فتنة وقعت بين طائفتين من طوائف الجند وهما الاتراك والمغاربة حيث اصطنع ابن عمار وزير الحاكم "احداث المغاربة فكثر عبث اشرارهم وامتدت ايديهم الى اخذ الحرم في الطرقات وعروا جماعة من الناس فكثرت الشكاية منهم ولم يبد كبير نكير, فافرط الامر حتى تعرضوا للاتراك يريدون اخذ ثيابهم فثار لذلك شر"[٤٤], وكذلك شهدت السنوات ٣٩٠ه/١٠٠٠م و٣٩٧ه/١٠٠٧م و٤١٠ه/١٠١٩م غلاءات ومجاعات حيث بلغ عدد من مات جوعا في اخرها حسب رواية المقريزي الى مئتين وسبعين الف انسان [٤٥] , وترك الفاطميون امر المصريين لله ومن ثم للنيل ان فاض زرعوا واكلوا والا فالجوع والموت وهم يتنعمون في القصور.

ولم يشذ الخليفة ابو الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله(٤١١ه/١٠٢٠م–٤٢٧ه/١٠٣٦م) عن الترف بل امعن فيه وجاوزه الى الفساد والمجون فقد كان محبا للدعة شغوفا بالغناء واللهو[٤٦]، "شرب الخمر ورخص فيه للناس وسماع الغناء وشرب الفقاع" [٤٧],كان ينفق مالا لا يحصى في ليلة الغطاس وهو عيد للنصارى من ماكل ومشارب ويتجاهر الناس بشرب الخمر حتى يخرجوا عن الجد[٤٨],اما ابنه وولي عهده فقد انفق في يوم واحد خمسة وعشرين الف دينار، وزع خمسة الاف منها على العامة في طريقه من القصر الى مدينة مصر، ووزع الباقي على خاصته[٤٩], ليس غريبا ان ترتفع الاسعار وينزل بالناس الجوع والخليفة قد استغرق في شهواته واوكل تصريف الامور للقائد معضاد الدولة وهو عبد اسود[٥٠] ولم يكتف بهذا بل اخذ كل الغلة التي جاءت الى مصر بالمراكب الى القصر[٥١] وذلك سنة ٤١٥ه/١٠٢٤م السنة التي حدثت فيها مجاعة كبيرة على الرغم من أن حد النيل بلغ الذراع السادسة عشر ثم ارتفع ليبلغ السابعة عشرة الا انه يبدو انها كانت مجاعة عامة نزلت بمصر ودمشق ومكة [٥٢], وكونها عامة لا يبرئ ساحة الفاطميين ويخلي مسؤليتهم عن رعاياهم فلا يعقل ان تترك الدولة من غير أي احتياطي من الحبوب فيجوع الناس مع اول نقصان للنيل سيما وان الفاطميين وكل من حكم مصر قد خبر الازمات المتوالية ويتوقعها في أي وقت, الا ان الظاهر كان قد انغمس في

شهواته واهمل امر الرعية التي اجتاحها الجوع واضطربت الامور وتململت طوائف الجند وافتقد الامن ومات الاف المصريين فظج الناس من سوء الحال وصاحوا في الظاهر"الجوع الجوع يا امير المؤمنين, لم يفعل بنا هذا ابوك ولا جدك, فالله الله في امرنا"(٥٣), ومع كل هذا البلاء لم يلغ الخليفة مادبة عيد الاضحى التي نهبها العبيد وهم يصيحون الجوع الجوع, وبلغ الحال بالخليفة نفسه الذي اساء تدبير الامور ان يقترض من رجال دولته فلبى طلبه بعضهم وامتنع اخرون(٥٤).

يقف الانسان حيرانا امام عدم اتعاظ الحكام خلفهم بسلفهم فهذا ابو تميم معد المستنصر (٤٢٧ه/١٠٣٦م-٤٨٧ه/١٠٩٤م) الذي استخلف بعد الظاهر يسير على نفس خطى سابقه من الترف واهمال امر الدولة والانشغال بالملذات والمجون ليشهد عصره الازمات والغلاءات في السنوات ٤٤٤ه/١٠٥٢م و٤٤٦ه/١٠٥٤م و٤٤٧ه/١٠٥٥م , وتلتها الازمة الاكبر في تاريخ مصر التي تعرف بالشدة العظمى او الشدة المستنصرية ٤٥٧ه/١٠٦٥م-٤٦٤ه/١٠٧٢م وجدير بالذكر ان حد النيل في كل هذه الازمات لم ينخفض عن الذراع السادسة عشر الا في سنة٤٦٠ ه/١٠٦٨م حيث بلغ خمسة عشر ذراعاً وستة اصابع اما باقي الازمات فهو اما ستة عشر ذراعاً او سبعة عشر(٥٥).

لم يكن النيل اذن سبب جوع الناس ولكنه الخليفة الذي بالغ في الانفاق* مما جعل وزيره يخفض من مبالغ الاعطيات الي قد اقرها للخاصة الا انه رفض واعادها وزاد من مبالغها(٥٦), واطربه صوت مغنية في احد الايام فاقطعها ارضا في القاهرة اصبحت تعرف بارض الطبالة(٥٧) نسبة لها.

وفي احد ايام الغلاء الذي شهدته سنة ٤٤٧ه/١٠٥٥م زار الخليفة على عادته في كل ثلاثاء بيت وزيره فراى على مائدته انواعا من الطيور والطعام قد افتقدت من مائدة الخليفة فغضب وقال لصاحب مطبخه:"ويلك يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك"(٥٨), ويذكر انه كان له اكثر من ثمانمائة بذلة(٥٩), ولامه خزانة للمال كخزانة الخلفاء(٦٠), ترف وحب للجمع واللهو استحكم من نفس الخليفة فانساه ان رعيته لا تلقى الخبز لتاكله.

ترف وانفاق بهذا الحجم مؤكد انه يحتاج لمصادر تدر المال لتغطيته مما دفع الخلفاء الى الاستحواذ على كثير من العقارات في مصر ففضلا عما يزرع لصالحهم من خيرة اراضي مصر وما يقطعوه لرجال دولتهم وخاصتهم يعدد لنا ناصر خسرو الذي زار مصر سنة ٤٣٩ه/١٠٤٨م في حكم المستنصر ما للخليفة من عقارات ياخذ عائداتها فيذكر انه راى في ميناء مدينة تنيس "يرابط حولها دائما الف سفينة منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان"(٦١), وهنا سؤال لا مناص من طرحه, لماذا لم يخصص اسطول مثل هذا لجلب القمح بشكل دائمي من خارج مصر وتوفير رغيف خبز كريم لاهلها؟ وذكر ناصر خسرو ان مدينة تنيس تعطي للخليفة الف دينار كل يوم, وله في القاهرة عشرون الف دكان تؤجر لحسابه وثمانية الاف بيت في مصر والقاهرة يؤجرها ايضا (٦٢), يبدو من هذه الارقام – رغم تسجيلي عليها المبالغة– ان الخليفة كان يؤجر كل القاهرة ومعظم مصر للمصريين, فكم دكان قد تضم مدينة مبنية حديثا وفي ذلك العصر حتى يكون عشرون الفا منها للخليفة ؟

بلغ المجون والاستهتار بالمستنصر مبلغا انه كان "في كل سنة يركب على النجب ومعه النساء والحشم الى جب عميرة وهو موضع نزهة كانه خارج يريد الحج على سبيل الهزر والمجانة ومعه الخمر محمول في الروايا عوضا عن الماء ويدوربه سقاته عليه وعلى من معه كانه بطريق الحجاز او كانه ماء زمزم"[٦٣], فكانت سنة ٤٥٤ه/١٠٦٢م حيث خرج كما اعتاد مستهزئا بمقدس من مقدسات الدين فقتل احد الجند الاتراك الذين بصحبته وقد اذهبت الخمر عقله احد العبيد فقام العبيد بقتل التركي لتندلع فتنة * اسماها المقريزي"الفتنة التي الت الى خراب ديار مصر"[٦٤] وعرفت بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية أو اللجة العظمى حيث مات الاف الناس جوعا وانتشر السلب والنهب والخطف والقتل والامراض وهاجر الكثير الى خارج مصر نجاة بنفسه وتعطلت الحياة قرابة العشر سنوات "يطلع النيل فيها وينزل ولا يوجد من يزرع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية"[٦٥], يطلع النيل وينزل ولا يوجد من يزرع كما ذكرنا ، ففي سنوات هذه الازمة تراوح ارتفاع النيل بين الستة عشر والسبعة عشر ذراعاً فهل بالامكان الحديث عن قصور النيل والقحط كسبب لاكبر مجاعات مصر الفاطمية؟

أصاب المقريزي عين الحق عندما قرر ان الشدة المستنصرية خربت البلاد فاستمرت بعدها الفتن وسيطرت الوزراء وطوائف الجند على الامور واقصاء الخليفة الذي اصبح يملك ولا يحكم والازمات تنزل بالمصريين واحدة تلو الاخرى والخلفاء مستمرون بترفهم ولهوهم فالمصادر تصف الخليفة أبا المنصور اسماعيل الظافر(٥٤٤ه/١١٤٩م–٥٤٩ه/١١٥٤م) باللهو وحب اللعب والجواري والاغاني[٦٦].

واخيرا وحرصا على اظهار الراي الاخر بالحوادث فانه هناك من يبرر بذخ الفاطميين بالقول "لقد كان من الاغراض الرئيسة للسياسة الفاطمية في مصر توطيد سلطانها بكل الطرق الممكنة وقد تهيا الشعب المصري السني لان تناله ابهة الحفلات الفاطمية فكانت وسيلة ناجحة للتاثير فيه فجميع اعياد الفاطميين وحفلاتهم كانت مطبوعة بطابع خاص من الاناقة والبذخ"[٦٧].

نعم قد اثرت تلك السياسة بالشعب المصري تاثير الترف والاسراف الذي لا يكون الا تزيينا للاجواء وتجويعا للاحشاء وتبديدا لثروات البلاد وشغفا بما هو لي واهمالا لما هو علي.

المطلب الثاني

اتراف كبار رجال الدولة وفسادهم

ليس تحاملا عليهم انما لانهم رعاة مسؤلون عما تحت ايديهم نقول: ان الفاطميين افسدوا كبار رجال دولتهم من وزراء ومحتسبين وقواد الجيش بما اعطوهم من اراض واموال لا يستحقونها او بما غفلوا عنه او ضعفوا دونه فصار اليهم وحرم منه الشعب المصري.

نال بذخ الفاطميين كل من اقترب منهم وعمل تحت لواء دولتهم من وزراء ومحتسبين وقضاة وقادة للجند والدعاة الذين كانوا يجوبون البلاد لنشر الدعوة الفاطمية فاقطعوهم اجود الاراضي واعلى الرواتب والخلع والهدايا وهذا دين الحكام في كل وقت ومكان ليضمنوا تايدهم وليسيطروا بهم على الرعية ويحفظوا بهم ملكهم.

فكان راتب الوزير في دولتهم خمسة الاف دينار(٦٨) وهو نفس راتب الخليفة العباسي,ولكل من اولاد الوزير واخوته ثلاثمائة الى مئتين دينار بالشهر(٦٩), ومن الاقطاعات في السنة ما قيمته خمسون الف دينار وعشرون الف اردب* من القمح والشعير وثمانية الاف راس من الغنم(٧٠) هذا غير ما يخلعه الخليفة على وزيره ورجال دولته في رمضان والعيدين(٧١), ويبدو ان اقطاع الوزراء لم يكن ثابت المقدار اذ ذكر المقريزي ان اقطاع يعقوب ابن كلس وزير العزيز كان ثلاثمائة الف دينار في السنة(٧٢), وذلك سوى الهدايا الفخمة التي قدمها الخلفاء لرجالهم فحين ولد للوزير يعقوب بن كلس ابن ارسل اليه العزيز مهدا من صندل مرصعا وثلاثمائة ثوب وعشرة الاف دينار وخمسة عشر فرسا بسروجها – منهم اثنان ذهب – وطيب(٧٣), وارسل العزيز لاحد قواده هدية لانه رزق ولدا "ثلاثين ثوبا فاخرة وعشرة اردية وعشرة عمائم وثوبا مثقلا ومنديلا طوله مائة ذراع ومنديلا دونه وخمسمائة دينار وحملت اليه السيدة العزيزية مائة ثوب صحاحا من كل فن وثلاثمائة دينار ومهدين احدهما ابنوس محلى بذهب والاخر صندل محلى بفضة مخرقة ولهما اغشية ومخاد وثياب وفرش مثقلة"(٧٤).

اما ابن كلس فقد خلف عند وفاته مائة الف دينار واربعة الاف غلام وعبد –وهم الطائفة المعروفة بالطائفة الوزيرية–وجواهر قيمتها اربعمائة الف دينار وترك ديناً لتجار مصر بستة عشر الف دينار قضاها الخليفة عنه(٧٥),ثم ولى العزيز الوزارة في مصر لنصراني اسمه ابن نسطورس وذلك بعد ان قتل وزيره ابن كلس وولى وزارة الشام ليهودي اسمه منشا فاستغل ابن نسطورس سلطته ووظف اقربائه وشق على المسلمين الذين ظجوا بالشكوى فعملوا تمثالا على هيئة امراة ووضعوه في طريق الخليفة في احدى خروجاته فوقف لينظر في حاجتها فاذا بيدها ورقة مكتوب عليها "بالذي اعز اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطورس واذل المسلمين بك الا نظرت في امري", فعزلهما وحبسهما وصادر من ابن نسطورس ثلاثمائة الف دينار(٧٦).

اما قارئي مقياس النيل فكانت خلعته في السنة خمسة بغال محملة بأثواب مذهبة والفان وخمسمائة دينار(٧٧).

كل هذه الاموال والخلع لم تعف الوزراء ورجال الدولة خاصة منهم أولئك الذين تغلبوا على الخلفاء وصارت امور الدولة بأيديهم اما لصغر سن الخليفة او لضعفه فجمعوا الثروات الهائلة فبالنظر في حجم ما خلفوه يعرف ما كانوا عليه من ثراء فهذا برجوان خادم العزيز الذي ولاه الوصايا على الحاكم لصغر سنه خلف عندما قتله الحاكم الف سروال بالف تكة حرير ومن الملابس والفرش والاثاث ما لا يحصى [٧٨].

وكانت الرشوة منتشرة بين المتصرفين باموال الدولة يظهر ذلك مما ضمنه الخليفة الظاهر في كتاب تولية ابي القاسم علي بن احمد الجرجرائي الوزارة حيث قال "والذي يدعو المتصرف الى ان يحمل نفسه على الخطة النكراء في الاحتجاز والارتشاء احد امرين : اما حاجة تظطره لذلك واما جهالة تورده المهالك"[٧٩].

اما بدر الجمالي امير الجيوش الذي استدعاه المستنصر من دمشق لينقذه من تطاول الجند ويعيد الامور الى نصابها ثم ولاه الوزارة فكان اول وزير تفويض في دولة الفاطميين بعد ان كان الوزير وزير تنفيذ لاوامر الخليفة فقد خلف ثروة هائلة منها سبعمائة غلام وستة الاف الف دينار واربعمائة الف الف درهم واربعة صناديق من الجواهر والياقوت وذهب وفضة وزمرد وسروجا محلاة[٨٠]، جمع الوزير هذه الثروة في اثناء اكبر مجاعة عرفتها مصر وهي الشدة المستنصرية او اللجة الكبرى فحتى الخليفة كانت الشدة قد نالته ووصلت به الى الاكل من الصدقات والوزير يجمع مثل هذه الثروة فهي صورة جلية لفساد الوزراء وتفردهم بالامر دون الخليفة الضعيف او المشغول بشهواته وهو الحال الذي الت اليه دولة الفاطميين اثناء خلافة المستنصر الذي اشعل نارا مسه لهيبها يوم خرج للنزهة يشرب الخمر ويستهزئ بشعائر الحج .

وتولى الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه الافضل وبقي وزيرا منذ خلافة المستنصر وطوال خلافة المستعلي(٤٨٧ه/١٠٩٤م–٤٩٥ه/١١٠٢م) وسنوات من خلافة الامر باحكام الله (٤٩٥ه /١١٠٢م–٥٢٤ه/١١٣٠م),والافضل فاق من سبقه ترفا وفسادا وقارب المرض النفساني فالترف هو ان يكثر الانسان من مقدار شي فوق ما يجب او ما يحتاج اليه اما ان يستعمله في غير مكانه فهو هوس وعوق نفساني يورثه الحب المفرط والغير منضبط للشي,فكان اذا جلس لشرب الخمر يصف صواني من الذهب فيها اواني مملوئة جواهر فاذا اراد الشرب فرغت الجواهر في الصينية وملئت خمرا [٨١]، وفي مجلس شرابه هذا ثمان تماثيل لجواري اربع من كافور ابيض واربع من عنبر اسود قد احكموا بحيث ينحنون لدخوله ويستون عند جلوسه[٨٢], اما ما خلفه فبذكره اطالة لابد منها لنتصور حجم فساده وتعديه على اموال الشعب المصري فمما ترك قرابة الاثنى عشر مليون دينار وورق قيمته مائتان وعشرون الف دينار وعشرة بيوت فيها مائة حمالة من الذهب لتعليق العمائم وزن الواحدة مئتا مثقال وتسعمائة ثوب حرير وتمثال من عنبر بحجم جسده تعلق عليه ملابسه لتعطر ومن البقر والغنم والجمال ما قيمة انتاج البانه في السنة اربعون الف دينار ودواة مرصعة بجواهر قيمتها اثنا عشر الف دينار والعديد من

البراني الكبيرة المملوئة جواهر[٨٣], اتفق مع من يقول ان هذه الارقام تبدو مبالغاً فيها ولكن ما حجم المبالغة فيها؟ فلو خفضناها الى النصف بل الربع لبقيت ترفا واسرافا وبذخا منقطع النظير.

اما بهرام الارمني الذي استوزره الحافظ لدين الله (٥٢٥هـ/١١٣١م-٥٤٤هـ/١١٤٩م) مكرها تحت ضغط الجند فقد جمع حوله اقربائه وبني ملته من الارمن الذين بلغوا الثلاثين الفا في مصر ودفع اليهم اهم الوظائف فتطاولوا على الرعية وبالغوا في بناء الكنائس ومدوا ايديهم إلى أموال الناس[٨٤].

وتولى الوزارة في خلافة الفائز(٥٤٩هـ/١١٥٤م-٥٥٥هـ/١١٦٠م) طلائع الصالح بن رزيك واستغل ان الخليفة طفل صغير فجار على الناس وصادر اموالهم وباع الولايات للامراء كل ولاية بسعر ولستة اشهر فقط[٨٥] , ومعلوم كيف سيعامل الناس من يشتري الولاية ولفترة محدودة فاثقلوا على الناس ونهبوهم فتضرروا من ذلك ومن كثرة تبدل الولاة.

وممن تولى وزارة اخر خلفاء الفاطميين العاضد لدين الله (٥٥٥هـ/١١٦٠م-٥٦٧هـ/١١٧٢م) الوزير شاور بن مجير بن نزار السعدي الذي"اكثر من سفك الدماء بغير حق فكان يامر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب جثث القتلى الى خارج الدار,واشتد ظلم اخوته واولاده وغلمانه ومن يلوذ به وكثر تضرر الناس بهم" [٨٦], ولما ايس من قدرته على الاحتفاظ بالحكم لاقتراب جيش اسد الدين شيركوه من القاهرة احرق مصر فكانت نهاية الخلافة الفاطمية على يديه كما سنبين في مطلب قادم.

المطلب الثالث

الاحتكار

الحكر: "ما احتكر من الطعام ونحوه,أي احتبس انتظارا لغلائه"[٨٧], وهو افة ما فشت في مجتمع الا افقرته بحصرها لثرواته في فئة قليلة وهم المحتكرون واجاعت الباقين برفعها لسعر المادة المحتكرة,وهو ظلم نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنه بقوله :"من احتكر فهو خاطئ"[٨٨].

كما تقدم فان معظم مجاعات مصر كانت غلاءات سببتها علل عدة منها الاحتكار الذي مورس في دولة الفاطميين بشكل واسع اذ كان التجارة الاربح , ولم يصدر الاحتكار عن التجار فقط بل حتى المسؤلين كالوزير والقادة واحيانا الخليفة نفسه فمرت مصر بالعديد من ازماتها والغلال في المخازن بانتظار ارتفاع السعر اكثر, فمشكلة الاحتكار انه معدي فما ان يرى التجار تاجرا يشتري ويجمع الغلال من السوق حتى يقع في خاطرهم ان ازمة مقبلة والاسعار الى ارتفاع فيبداوا باخفاء بضائعهم خوفا من بيعها وعدم القدرة على شراء بضاعة جديدة بنفس السعر السابق فيرتفع السعر والمستهلك في الجهة المقابلة ما ان يشعر ببداية ارتفاع السعر حتى يستشعر الازمة ويستحضر خوفه من الجوع فيقبل على شراء اكثر مما يحتاج ليضمن قوت ايامه وهكذا طلب يقابله شحة في العرض فتكون الازمة فعلا

مع توفر الغلال نتيجة الاحتكار وهذا ما عبر عنه المقريزي بقوله:"والاحتكار يدعو الى تصاعد الاسعار بغير قحط"[٨٩] .

المحتكرون بداوا الازمة ولكن من سينهيها؟ فالاحتكار مغري لصاحبه بالصبر اكثر لزيادة الربح,فمن سيبيع اولا ويغامر بحظه من الربح الفاحش؟ وماذا لوارتفع السعر اكثر؟ وغالبا في حالات الاحتكار لا تفتح مخازن المحتكرين ابدا الا للاثرياء الذين لديهم قدرة الشراء بالاسعار الهائلة التي يصل اليها السوق، اما العامة من الفقراء ومتوسطو الحال فهم الذين يكونون ضحية الجوع .

في خلافة الحاكم وتحديدا سنة ٣٨٧ه/٩٩٧م ارتفعت الاسعار واشتد الامر فاولى الحاكم مسعود الصقلبي النظر في الاسعار فجمع خازني الغلال والطحانين وضرب بعضهم بالسياط وصادر عدة مخازن وفرق ما فيها من قمح على الطحانين ومع ذلك استمرت الازمة وتفاقمت وظج الناس لشدتهم واستنجدوا بالحاكم وتكاثروا على باب القصر فخرج من قصره وقال:"انا ماض الى جامع راشدة فاقسم بالله لان عدت فوجدت في الطريق موضعا يطؤه حماري مكشوفا من الغلة لاضربن رقبة كل من يقال لي ان عنده شيئا منها ولاحرقن داره وانهبن ماله"[٩٠], فلما رجع اخر النهار كانت الغلال قد ملات الطرقات, وخيرالتجار اما ان يبيعوا بالسعر الذي يحدده لهم او يختم على غلالهم ولا يبيعونها الى حين ياتي محصول السنة الجديدة وقد تتلف او ينخفض ثمنها فاخرجوا ما خزنوه وانخفض السعر وانتهت الازمة وهنا يتضح خطا المقريزي عندما قرر ان سبب هذه الازمة هو قصور النيل بينما الازمة انتهت بمجرد معالجة الاحتكار[٩١].

يورد المقريزي في كلامه عن ازمة سنة ٤١٤ه/١٠٢٣م في خلافة الظاهر ما يؤيد ما ذكرناه عن الاحتكار فيقول :"انصرف ماء النيل انصرافا فاحشا ولم ترو منه الضياع وكثر ضجيج الناس واستغاثتهم وخرج اكثرهم بالمصاحف منشورة الى الجبل يدعون الله فلم يغاثوا وتعذر وجود الخبز وازدحم الناس على شراء الغلال ووقف سعر التليس على دينار الا انه لا يوجد اذا طلب وابيع سرا التليس القمح بدينارين"[٩٢]، هكذا اذن بدات الازمة بمجرد قصور الماء وقبل ان تعدم الغلال من السوق وارتفع السعر لانها احتكرت بمجرد استشعار النقص في الماء وبيعت باضعاف الثمن سرا للاغنياء,ثم يروي المقريزي كيف ولى الظاهر الحسبة لداؤد بن يعقوب الكتامي فنزل الى السوق ونظر في الاسعار"فاستقامت الاحوال"[٩٣]، لانه لا يوجد ازمة فعلية سوى الاحتكار وعدم ضبط المحتسب للسوق واسعاره.

ما لبثت تلك الازمة ان عادت في نفس السنة وارتفعت الاسعار وحل الجوع وللمرة الثانية الاحتكار هو سبب الازمة وليس القحط ولكن ليس احتكار التجار بل رجال الدولة الذين ملاؤوا مخازنهم بالغلال فتعذر وجود الخبز"ثم وجد فتحت مخازن جماعة من اهل الدولة"[٩٤].

وفي سنة ٤١٥ه/١٠٢٤م حلت ازمة اشد من سابقتها فارتفعت الاسعار وفقد الخبز وحل الجوع وفشى النهب والسلب والقتل ووصل الامر بالبعض الى اكل الجيف والكلاب والقطط ومات قرابة المئة

والسبعين انسانا وصاح الناس بالخليفة الظاهر الجوع الجوع ياأمير المؤمنين فنزل المحتسب داوس الى السوق وصادر مئة وخمسين مخزنا للقمح والغريب انه لم يطرحها في الاسواق فساء الحال اكثر ليتحرك القصر اخيرا ويستدعي المحتسب حيث هدد وقيل له" لقد قتلت الناس جوعا وخربت البلاد على مولانا" [٩٥]، ويبدو واضحا ان الازمة ازمة احتكار وغلاء والا ما حمل المحتسب وزرها فالقمح متوفر في المخازن, فوعد المحتسب بحل الازمة ونزل السوق واطلق القمح من المخازن للطحانين وسعر عليهم فسكن الحال, والغى المكوس المفروضة على الغلال التي تباع في الساحل فكثر الخبز [٩٦].

وفي خلافة المستنصر وفي احدى ازمات الغلاء التي نزلت بالبلاد واختفت الغلال من الاسواق طلب الوزير من احد تجار مصر النصارى ان يساعد بما يقدر عليه من الغلة فقال التاجر:"اسعد الله السلطان والوزير ان لدي من الغلة ما يمكنني من اطعام اهل مصر الخبز ست سنوات"[٩٧].

اغوى شيطان الاحتكار وربحه الفاحش حتى الخليفة المستنصر اذ اعتاد ان يشتري كل سنة قمحا بمئة الف دينار ويخزنها[٩٨] حتى يرتفع السعر ويجبر التجار على البيع بسعره[٩٩] الى ان تدخل لدى الخليفة الوزير اليازوري وكان حينها قاضيا وقال للمستنصر:"يا مولانا ان المتجر الذي يقام فيه مضرة كبيرة على المسلمين...وبطل المتجر في الغلة وتوسع الناس بذلك"[١٠٠]، اقنع اليازوري الخليفة بعدم احتكار القوت والاتجار بغيره مما لا يؤذي الناس كالخشب والعسل والصابون والحديد الا ان بعض مؤرخينا اعتبر ذلك ضعفا في الاجتهاد ووصولية الهدف منها التقرب للخليفة وعلل ازمة سنة ٤٤٤ه/١٠٥٢م بنصيحة اليازوري للخليفة حيث حلت الأزمة ومخازن السلطان خالية[١٠١]"فكان الاحتفاظ بهذه الغلة اشبه باحتياطي للبلاد"[١٠٢]، ولم يكن الوزير اليازوري وصوليا بل مدركا لضرر الاحتكار وانه اكبر أسباب المجاعات يظهر ذلك من طريقة معالجته لازمة سنة ٤٤٧ه/١٠٥٥م بعد ان اشتد الجوع وانعدم القوت من السوق فكتب الى عمال الولايات ان يحصوا ما في مخازن التجار من الغلة ويختموا عليها ثم فاوض التجار على بيعها واشتراها وحملها بالمراكب الى القاهرة وطرحها في السوق"فقام بالتدبير أحسن قيام مدة عشرين شهرا الى ان أدركت غلة السنة الثانية فتوسع الناس بها وزال عنهم الغلاء وما كادوا يتألمون لحسن التدبير"[١٠٣].

نستطيع القول ان الأزمات التي حلت بمصر نادرا ما كان سببها القحط فحتى في اكبر تلك الأزمات وهي الشدة المستنصرية التي لم تعرف مصر اقسى منها طوال عصورها حيث اكل الناس بعضهم وبيع لحم الإنسان والأطفال وكان الرجل يخطف من الطريق بكلاليب يصطاد بها من اسطح المنازل ليؤكل وتخطف المراة ويقطع لحم افخاذها ويشوى ويدخل الوزير في طريق على بغلته فتنهب البغلة وتؤكل واكل الخليفة من فتيت خبز ترسله له ابنة احد الفقهاء[١٠٤]، حتى في تلك الازمة كان للاحتكار دور, ففي احد ايام تلك الازمة اشترت امراة من الاغنياء شوالا من الدقيق بعقد قيمته الف دينار واستاجرت من يحرسها الى ان توصله بيتها وما ان وصلت وانصرف الحراس حتى تكاثر الناس

ونهبوه ولم يتبق منه الا على حفنة يدها فصنعت رغيفا وذهبت الى باب القصر ونادت "يا اهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذي اسعد الله الناس بأيامه واعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بالف دينار"[١٠٥]، فاغتاظ الخليفة لذلك وهدد الوالي وتوعده بالقتل ان لم يظهر الخبز في الاسواق فجمع الوالي التجار والطحانين والخبازين وجلب مجموعة من المحكومين بالاعدام وقد البسهم ملابس توحي بانهم تجارا وطحانين وادخل احدهم الى المجلس حيث التجار والطحانين وانبه على احتكار الغلال وامر بقتله فقتل امامهم ثم فعل كذلك مع الثاني وامر بالثالث فقال الحاضرون يكفي هذا سنخرج الغلة ونعمر الاسواق ونرخص الاسعار[١٠٦], واضح من كلام التجار والطحانين انهم سبب الازمة وبيدهم حلها ولكن السؤال اين كان الخليفة ورجال الدولة من هذا الاحتكار الذي سبب ازمة توصف بانها اشد من ازمة مصر ايام يوسف عليه السلام؟

وفي غلاء ايام الآمر باحكام الله قام بمثل ما قام به الحاكم اذ ختم مخازن الغلال وخير التجار بين اطلاق ما احتكروه الى السوق وعدم بيعه الى ان تاتي الغلة الجديدة فمنهم من باع وانفرجت الازمة ومن لم يبع خسر كثيرا, لأن المحصول الجديد دخل السوق وانخفضت الاسعار[١٠٧], وكذلك الحال ايام الحافظ لدين الله حيث عالج الغلاء والازمة بان "ادب جماعة من المحتكرين ومن يزيد في الاسعار"[١٠٨],وفي خلافة العاضد احتكر وزيره الصالح بن رزيك –الذي كان الحاكم الفعلي للبلاد– الغلال فارتفعت الاسعار[١٠٩].

واخيرا فان للعامل النفسي اثرا في دفع الناس عامة للاحتكار فويلات الجوع تركت بصمتها في نفوس المصريين فصاروا يتحذرون البلاء قبل وقوعه ويحدثون انفسهم بعدم فيضان النيل فيقبلون على شراء اكثر مما يحتاجونه من الطعام فيؤدي الطلب الى ارتفاع سعر المعروض وتحرك السعر يدفع الى اخفاء البضاعة طمعا في ارتفاع سعرها اكثر فيقبل الاغنياء على الشراء وان لم تتوفر الاموال يكون الجوع بغير قحط[١١٠].

المطلب الرابع

الضرائب

أول الحلول لندرة في سلعة ما حضورا في ابسط الاذهان اعفاء تلك السلعة من الضرائب ليتشجع التجار على استيرادها او على الاقل تخفيض تلك الضرائب حتى لا ترتفع كلفة السلعة ومن ثمّ سعر بيعها للمواطن, وهذا لم يحصل طوال تاريخ دولة الفاطميين في مصر الا اللهم بعد ان تقع الازمة والمجاعة فيكون هذا الاجراء لا قيمة له اذ لا يسعف الوقت لتاتي سلع جديدة وباسعار منخفضة لتحل محل السلع الموجودة عالية التكلفة والسعر.

ان ضرائب الفاطميين كانت اشبه بالحصار على قوت الشعب المصري فهم ياخذون الخراج من الارض ولا يتهاونون فيه فحتى ايام المجاعات كانوا يؤجلون استحصال الخراج ولا يلغوه نهائيا فتتراكم الضريبة على الفلاح وتثقل كاهله وكانوا يطلقون عليها البواقي ويستحصلونها في السنة الثانية

مما جعل الفلاحين يبيعون المحصول في ارضه قبل حصاده مما يؤدي الى ارتفاع الاسعار(١١١), ومن ناحية ثانية فرضوا ضريبة على كل ما يدخل مصر عبر الموانئ والثغور ولهم ديوان خاص لتحصيل تلك الضرائب يعرف بديوان الثغور(١١٢), فحتى الغلة التي تدخل من خارج مصر والمفروض انها تقلل او تنهي الازمة يرتفع سعرها بسبب تلك الضرائب,ولم تقتصر الضريبة على الغلة القادمة من خارج البلاد كما هو معروف في كل الدول بل تعدتها لتفرض على نقل الغلال بين المدن في داخل مصر(١١٣),واعجب العجب ان لا ترتفع اسعار الغلال بعد فرض كل هذه الضرائب على زراعتها واستيرادها ونقلها, ولا يعترف الفاطميون ان الضرائب هي احد اسباب الازمات الا عند وقوع الازمة فعلا فيعمدوا الى الغاء الضرائب وهو اجراء لا يستفاد منه بعد وقوع الازمة والجوع الا دعائيا ونفسيا حيث يهدي من روع الناس اما الواقع فان الغلال التي في السوق قد حملت قيمة الضريبة وارتفع سعرها وحل الجوع بالناس وانتهى الامر,وما يلبثوا ان يعيدوا تلك الضرائب ما ان تنتهي الازمة وهم باعادتها يبذرون بذرة ازمة جديدة ما تلبث ان تنمو ويشتد عودها وهذا ما حدث في اغلب الازمات ففي ازمة ٣٩٨ه/١٠٠٨م الغى الحاكم الضرائب واعادها سنة ٤٠٠ه/١٠١٠م ليضطر الى الغائها ثانية سنة ٤٠٣ه/١٠١٣م(١١٤).

وفرض الفاطميون العديد من الضرائب على المصريين ولم يستثنوا الا الهواء الذي بقي حرا دون ضريبة(١١٥) وذلك ليغطوا نفقاتهم الباهضة,ففرضوا الضرائب على المراعي والمصائد والذبائح والرقيق والصناعات وحتى على الحجيج وكان مقدار الضريبة مرتفعا تراوح بين العشرة والخمس والعشرين بالمئة من قيمة البضاعة (١١٦), ولم يكتفوا بالضرائب الشرعية المعروفة كالخراج بل فرضوا ضرائب اخرى منها خاصة بمذهبهم كالخمس حيث على الرجل ان يدفع خمس ما يملك والمراة خمس غزلها(١١٧), ومنها ليس له اصل ولا سابقة لا في مذهبهم ولا في سواه ففرضوا(الفطرة) وهي درهم عن كل ولد رجلا او امراة وهي تشبه ضريبة الراس التي لا تفرض على المسلمين,و(الهجرة) وهي دينار عمن ادرك من الرجال والنساء و(البلغة)وهي سبعة دنانير ولكنها اختيارية,و(الالفة) وهي ضريبة تفرض على المنطقة او الحي حيث يدفع كل فرد مبلغا محددا (١١٨).

عاش المصريون في الدولة الفاطمية في دوامة لا تنتهي حيث فرضت عليهم الضرائب الكثيرة وحين لم يقدروا على سدادها وقل وارد الخلافة عمدت الى رفع قيمة الضرائب لتغطية العجز في وارداتها فزادت الجرح ايلاما واستمر الحال والضرائب في تصاعد حتى وصلت لدرجات فاحشة من الكثرة والقيمة الى ان الغاها صلاح الدين الايوبي ولم ياخذ من المصريين الا ما امر به الله سبحانه وتعالى(١١٩).

عامل الفاطميون مصر كبستان والناس اجراء وفلاحين يزرعونه لهم ليوفروا تكاليف حياتهم المترفة ويغطوا نفقات دعاتهم لنشر دعوتهم التي كانت اول اولوياتهم فكانوا بعيدين جدا عن مصالح الناس وهمومهم ولا يلتفتوا اليهم الا اذا تفاقم الامر وظج الناس وخافوا على فقدان ملكهم ليتخذوا اجراءات

وقتية ومحدودة ما يلبث اثرها ان يتلاشى ويعود الحال لاسوأ مما كان عليه, فعلى الرغم من فداحة الازمات التي عصفت بمصر وخسائرها الطائلة بالانفس والاموال الا ان حلها لم يكن مستحيلا بل وتجنبها اصلا فلماذا لم يقم الفاطميون باستيراد القمح وابقاء احتياطي دائم يغطي أي نقص بالمحصول قد يسببه نقص حد النيل؟فمصر قلب العالم التجاري كما هو معلوم, اليها تاتي بضائع الشرق الاقصى وجنوب افريقيا لتمر الى اوربا ولدى الفاطميين اسطول ضخم يجوب البحرين الأحمر والمتوسط والمحيط الهندي ففي تنيس وحدها لهم الف مركب[١٢٠] فلم لم يخصص جزءا منه لتوفير ما تحتاج البلاد من الغلال؟ لم يبذلوا جهدا حقيقيا ودائما لتوفير القوت من الخارج واثقلوا كاهل الناس بالضرائب وبددوا الاموال بترفهم واسرافهم فكانت الأزمات تترى أزمات أهلكت الناس وأخذت بهجة حياتهم وأسقطت دولة الفاطميين انفسهم.

المطلب الخامس

اهمال كري الانهار

في بلد كمصر تقوم الحياة فيها على الزراعة فان كري الانهار واقامة السدود من مقدسات اقتصادها لضمان ديمومة ري الارض ولزيادة المساحة المزروعة فمعروف ان اغلب زراعة مصر تعتمد على فيضان النيل فيسير الماء في قنوات توزعه الى الاراضي والى بحيرات لخزنه محاطة بسدود ترابية تحول دون عودته الى النهر عندما ينخفض حد النيل وهذه القنوات يجب ان تكرى سنويا لازالة ما بقي من طمي الفيضان، والسدود يجب ان ترمم, والجسور على نوعين سلطانية وبلدية, اما السلطانية فاصلاحها من واجب الدولة, والبلدية يصلحها اصحاب الاراضي المنتفعة بها ويخصم ما ينفق على اصلاحها من قيمة خراج تلك السنة[١٢١].

وقد حصل تقصير كبير من قبل الدولة في واجبها هذا اما لضعف الخليفة وخروج الامر من يده او لانه مشغول عن امر رعيته باللهو ففي اكبر شدائد مصر نقرا في كتب التاريخ عن اهمال لمشاريع الري فهذه شدة المستنصر العظمى كان فيها "النيل ينزل ويطلع ولا يوجد من يزرع ويقيم الجسور"[١٢٢], فعانى المصريون ويلات الجوع ومات الالوف الى ان تولى الوزارة وزير قوي هو بدر الجمالي فاهتم باصلاح الجسور وتعميق قنوات الري فجاء الموسم بعميم الخير[١٢٣].

ان اسباب المجاعات مترابطة وبعضها ينتج بعضا فانشغال بعض الخلفاء بالترف واللهو وضعف تدبير بعضهم ادى الى ضعف الخلافة, وضعفها ادى الى الثورات والمشاكل الداخلية, وهذه ادت الى اهمال مشاريع الري, وكلهم مجتمعون ادوا الى الغلاء والمجاعات ولكن على الرغم من هذا الترابط بين الأسباب لا يمكن ان نقلب الامور ونجعل الأسباب نتائجا ونقول ان المجاعات ادت الى اهمال مشاريع الري[١٢٤] فنجعل المجاعات شماعة لكل شر وقع في مصر وكأن المجاعة قدر نزل فجاة دون اسباب ومقدمات وكانها ليست من صنع ايدي البشر فرزق الله لم ينقطع عن مخلوق ولكن اهمال الأسباب يقطعه, قال المقريزي في مقدمة كتابه اغاثة الامة معللا اسباب مجاعات مصر:"مافي الناس

سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد"[١٢٥]، وقال عامل الخراج في الشام عن اراضي مصر:"كشفتها فوجدت عامرها اضعاف غامرها ولو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا"[١٢٦], فالارض تعطينا بقدر ما نعطيها ولعله يصح الاستشهاد بقول اخترته لبلاغة تشبيهه وان كان عن الاهتمام بتنظيف الارض من الادغال والحشائش وليس عن الاهتمام بمشاريع الري ولكن القياس يصح من حيث مبدا الاهتمام بالارض ورعايتها,قال محفوظ من سليمان عامل خراج مصر:"الارض ظئر* لك وترابها ثديها وندها لبنها وحلفائها ابنها والزرع ابنك دفعته اليها ترضعه,فان تركتها وابنها مالت اليه بدرها,وان اخذت منها ابنها الى ابنك درها"[١٢٧].

المبحث الثاني

الأسباب السياسية للأزمات

المطلب الاول / ضعف الخلافة والمشاكل الداخلية

اذا كان الترف قد بدد ثروات البلاد فان ضعف الخلافة ومشاكلها الداخلية قد بدد دولة الفاطميين ذاتها فما الذي اضعفها بعد قوتها ايام المعز والعزيز؟ ان اول بذور ضعف الخلافة الفاطمية كامنا في فلسفتها وفكرها فمعروف ان الفاطميين شيعة امامية والحكم عندهم على مبدا التوريث وبوصية صريحة من الامام لا على مبدا اختيار الاصلح مما ادى الى تولي خلفاء صغار السن او ضعفاء, وحتى ننصف الفاطميين يجب ان نتذكر ان كل الحكام والخلفاء من بعد الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم ــ الى يومنا هذا هم على مبدا الامامية والوصية لابن الحاكم او الرئيس وان لم يكونوا امامية المذهب, واخطر ما في توريث الحكم هو تولي من لا يقدر او لا يصلح للحكم, فتتحول الخلافة لمجرد اسم ويؤول الحكم لمن لديه القوة على غصبه وهذا ما حصل للفاطميين وقبلهم العباسيين حيث سيطر الوزراء وقادة الجيش على الخليفة وكانوا الحكام الفعليين تحت اسم الخليفة المحجور عليه بالقصر،وهذا ثاني اسباب ضعف الخلافة الفاطمية,كما ان ضعف الخليفة يفسح المجال للمؤامرات الداخلية وللاوصياء عليه او من يؤثر فيه للتدخل في سياسة الدولة سواءا كان الوصي هو ام الخليفة او خادمه او وزيره وقد يصل تدخلهم الى حد قتل الخليفة او خلعه ، وهذا ثالث اسباب ضعف الخلافة الفاطمية, والسبب الرابع الذي ادى الى ضعف الخلافة والدولة هو ضعف تدبير بعض الخلفاء حيث قاموا بممارسات خاطئة او متقلبة مما ادى الى عدم استقرار البلاد وبعد الشقة بين الحاكم والمحكوم ومعلوم اهمية الاستقرار السياسي لاستقرار الاقتصاد,واخر اسباب الضعف كثرة طوائف الجند في الدولة والفتن التي ثارت بينهم والممارسات التي قاموا بها, ونعرض الان تفاصيل كل هذه الأسباب في تاريخ الفاطميين.

بدات اسباب الضعف بالظهور منذ تولي الحاكم بامر الله الذي جمع بخلافته اكثر من سبب منها,فتولى الخلافة بعد ابيه العزيز وعمره إحدى عشر سنة وخمسة اشهر وهو ثالث الخلفاء الفاطميين في

مصر,واوصى اباه به ثلاثة من رجاله هم القاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامة وبرجوان الصقلبي خادم العزيز, فولى الحاكم ابن عمار للنظر في امور الدولة ولقبه بامين الدولة فتصرف كانه الخليفة وعمل على تعيين ابناء قبيلته في اهم المناصب– ليعيد لهم سابق مكانتهم بعد ان قام العزيز بتقريب الاتراك على حسابهم– واغدق عليهم العطاء فوزع عليهم الفا وخمسمائة فرس من اسطبلات الخليفة وباع الوفا من البغال والحمير والجمال وعتق عددا من جواري القصر واصطنع احداث المغاربة يتقوى بهم على خصومه " فكثر عبث اشرارهم وامتدت ايديهم الى اخذ الحرم في الطرقات وعروا جماعة من الناس فكثرت الشكاية منهم ولم يبد كبير نكير فافرط الامر حتى تعرضوا الى الاتراك يريدون اخذ ثيابهم فثار لذلك شر"[١٢٨]"وقد اشار عليه اصحابه بقتل الحاكم وقالوا"لا حاجة الى من يتعبدنا" الا انه تركه استصغارا لشانه[١٢٩] ولانه لو قتله سينصب خليفة جديد وربما يكون قويا فالابقاء على الخليفة الصغير اضمن لمصلحته.

هكذا هي طبائع الامور لما تكون السلطة ضعيفة فان كلا من الرجال يعمل على اخذها لنفسه فظهر امام استئثار ابن عمار بالامور خوف برجوان الخادم فكتب الى القائد منجوكتين التركي في بلاد الشام يشكو له ما يفعله ابن عمار فسار بجيشه الى مصر اما ابن عمار فقد اظهر بان منجوكتين قد خرج على الحاكم يريد الثورة فسير جيشا من الكتاميين بقيادة سليمان بن جعفر الفلاحي الى الشام وذلك سنة ٣٨٧ه/٩٩٧م[١٣٠], فوقعت معركة اولى بين الطرفين في رفح انهزم فيها منجوكتين ووقعت الثانية بينهم قرب عسقلان وانهزم ايضا منجوكتين فاسره ابن عمار وعاد به الى القاهرة[١٣١], فهذه واحدة من الفتن والحروب التي لا سبب لها الا صغر سن الخليفة وتصارع رجاله على النفوذ فخسرت الدولة العديد من الرجال والوفير من الاموال اذ جهز ابن عمار جيش ابن الفلاح باربعمائة الف دينار وسبعمائة الف درهم غير السلاح والمؤن[١٣٢].

استغل برجوان ابتعاد الكتاميين عن مصر فحرض المشارقة على من بقي فيها منهم وعلى ابن عمار فوقعت فتنة بينهم ومعارك انتهت بهزيمة ابن عمار ليؤول تصريف امور الدولة لبرجوان الخادم[١٣٣], الذي استبد بالسلطة وقرب اصحابه وبني قومه ووزع عليهم المناصب فولى (يانس) الخادم الصقلبي على برقة وولى اخاه (يمن) الخادم عسقلان وغزة و(ميسور) الخادم على طرابلس و(فائق) الخادم الصقلبي على الاسطول و(خرد) الصقلبي على الشرطة السفلى وقلد الخادم الاسود على شرطة القاهرة[١٣٤],وبعد احكامه السيطرة مال الى اللهو بالغناء وجمع الاموال والحاكم يراقبه بصمت ويتحين الفرصة للتخلص منه بعد ان ظهر فساده واستئثاره بالسلطة وعدم احترامه للخليفة بحيث يكلمه من على فرسه وقد رفع قدمه على السرج وواجه نعله وجه الخليفة فدبر لقتله في سنة ٣٩٠ه/١٠٠٠م[١٣٥] بعد اكثر من سنتين من الفوضى وحكم البلاد من قبل الخادم واصحابه فكم من الثروات بددت في تلك الفترة وكم من الاجراءات الخاطئة اتخذت؟وكم ارهق ذلك الدولة واضعفها؟ولا عجب في ما يرويه المقريزي عن سنة ٣٨٧ه/٩٩٧م التي وقعت فيها الفتنة بين ابن عمار والمغاربة من جهة وبرجوان

والمشارقة من الجهة الثانية من ان الاسعار ارتفعت وفقدت الغلة من السوق واشتد خوف الناس واخذت النساء من الطرقات رغم ان النيل في تلك السنة بلغ الذراع السادسة عشر واصابع وهو حد الوفاء الذي تكتفي به البلاد [١٣٦].

بقتل برجوان انتهت فترة عدم الاستقرار التي سببها صغر سن الخليفة وابتدات فترة جديدة من التوتر والفوضى التي اوجدها الحاكم بقوته المفرطة هذه المرة وقتله الكثير من الرجال لاسباب واضحة احيانا وبغموض كبير احايينا اخرى وبسياسته الغير ثابتة سواءً تجاه اهل الذمة او عامة الشعب ولسنا في معرض تحليل شخصية الحاكم والحكم عليه الان ولكن لنبين بان طبيعة شخصيته وسياسته كان لها اكبر الاثر في عدم استقرار البلاد وفي نقمة الناس عليه واثارة الفتن بين الرعية وحتى في داخل القصر,فقد اعقب لقتله برجوان قتل الحسن بن عمار زعيم كتامة ثم قتل الحسين بن جوهر الصقلي الذي عينه مكان برجوان الخادم ثم قتل مؤدبه ابا القاسم سعيد بن سعيد الفارقي وهكذا كان يعين الوزير وما يلبث ان يقتله[١٣٧] حتى وصل عدد من قتلهم في خلافته ثمانية عشر الف انسان[١٣٨]، انه من الصعوبة بمكان تبرير قتل هكذا عدد من الناس فلو قسمنا عدد قتلاه على ايام حكمه فانه قتل في اليوم الواحد تسعة عشر انسان,فما الاثر المتوقع على الرعية والبلاد ورجال الدولة والاقتصاد من هكذا بطش؟

ان اخر ما يتوقع من سياسة التخويف هو الاستقرار والنمو الاقتصادي فالحاكم واجه مشكلة البلاد الاقتصادية والاحتكار بالقتل والعقوبات الصارمة والتهديد[١٣٩],ومعروف بان سلاح التخويف هو سلاح ذات فاعلية انية فما يلبث ان يذهب الشعور بالخوف وتعود الاطماع لنفوس المحتكرين ما لم تاخذ الدولة اجراءات ناجعة ودائمة الاثر منها مثلا ان تقوم الدولة بشراء كل الغلة من الفلاحين وتمنع بيعها لغيرها كما فعل يوسف عليه السلام واجتاز بدولة الفرعون اشد قحوط مصر, او ان تقوم الدولة باستيراد الغلة وطرحها في الاسواق لتفعل قاعدة العرض والطلب فينزل السعر لكثرة المعروض ولا اظن الحاكم بقوة دولته وما تملكه من اساطيل كان عاجزا عن القيام بذلك هو ومن اعقبه من الخلفاء الفاطميين ان وضعوا مصلحة الرعية في اول اولوياتهم.

كذلك فان سياسته تجاه اهل الذمة كان لها اسوا الاثر على ازمات مصر الاقتصادية فتخييره لهم بين اعتناق الاسلام او الرحيل الى مأمن واجبارهم على ارتداء زي معين وهدمه لكنيسة القيامة في القدس وكنائس اخرى في مصر والشام كل ذلك ادى الى سوء العلاقات مع الروم والحبشة المصدرين المهمين لاستيراد الغلال[١٤٠]، ناهيك عن عزوف التجار عن القدوم الى مصر وهروب رؤس الاموال التي لا تقيم حيث انعدم الامن ولم يؤمن مكر ولي الامر.

ابدع الحاكم بغرس كراهيته في قلوب الشعب المصري السني المذهب بغالبيته العظمى حين امر بكتابة لعن أبي بكر وعمر وعائشة والسلف رضي الله عنهم جميعا على حيطان الجوامع والدكاكين والبيوت ومنع اكل الملوخية المحببة لمعاوية رضي الله عنه والجرجير المحبب لعائشة رضي الله عنها

والمتوكلية المنسوبة للمتوكل العباسي[١٤١] ومنع صلاة التراويح وقتل احد ائمة الجوامع لتاديتها [١٤٢], ليغرس بهذه الطائفية المقيتة بذرتين من اهم بذور ضعف الدولة,كره الشعب داخليا والرغبة من التخلص من ظلمه[١٤٣] ,وعزلة عن المحيط الاسلامي القريب والبعيد ذلك المحيط الذي لم يتنكر لمصر في شدائدها مثال ذلك ما قام به حكام الاندلس حين ارسلوا لمصر سفنا مليئة بالطعام في سنة٤٥٢ه/١٠٦٠م[١٤٤].

استفحلت كراهية المصريين للحاكم ولم يفوتوا فرصة الا اظهروا له مشاعرهم ففي احدى جولاته في القاهرة وضعوا تمثالا لامرأة من قماش وبيدها ورقة ظن انها مظلمة او حاجة لها عنده فلما اقترب علم انها دمية وان الورقة ما هي الا سب وقدح في شخصه وحريمه ونسبه فاغتاظ وعاقب مصر بامر طوائف جنده بإحراقها ونهب اهلها وسبي نسائهم وقاتل المصريون ثلاثة ايام دفاعا عن انفسهم ورفعوا المصاحف امام الجند فرقت قلوب الاتراك والمشارقة لفرط ما نال الناس من الاذى وانضموا اليهم واعتذر الناس للحاكم ثم لوحوا له بالتهديد حتى كف ايدي جنده عنهم فعمد الناس الى شراء نسائهم من عبيده الذين استرقوهم[١٤٥].

توج الحاكم غرائبه وشذوذ سياسته بفتنة الوهيته ولا اثبت عليه انه ادعى الإلوهية فالاختلاف عميق حول حقيقة الامر ولست بصدد الخوض فيه ولكني استعرض ما شهده حكمه من فتن اثرت على الدولة واقتصادها فان كان ادعى الإلوهية لنفسه او غالى فيه بعض الغلاة فهو يتحمل مسؤولية ذلك بعدم قطع ألسنتهم وهو الذي قطع السنة كثيرة لاقل مما فعل هؤلاء الذين انتشروا في المدن ينشرون دعواهم التي قال بها اولا داع اعجمي اسمه محمد بن اسماعيل الدرزي فقربه الحاكم وأكرمه فوثب عليه احد الاتراك وهو في موكب الحاكم فقتله لتثور الفتنة ثلاثة ايام قتل فيها عدد كبير من الدرزية وقتل التركي قاتل الدرزي ثم ظهر داع اخر اسمه حمزة بن احمد وتلقب بالهادي ترخص في الشريعة فاباح الامهات والبنات واسقط تكاليف الصوم والصلاة ليظهر بذلك مذهب الدرزية في صيدا وبيروت وسواحل الشام[١٤٦] ويتحمل اثم من قال مقولته وذهب مذهبه الى يوم الدين.

عم اذى الحاكم ليصل الى آل بيته, اخته ست الملك التي رماها بالفحش واتهمها في شرفها وانها تدخل الرجال وتمكنهم من عفتها وقيل انه عزم على جعل الدايات يفحصنها ويبترئن رحمها [١٤٧],استفز خوفها فما هدات حتى قتلت الخوف فيها بقتل اخيها حيث ارسلت الى سيف الدين حسين بن علي بن داوس من مقدمي قبيلة كتامة وقائد من قواد الحاكم وكان ككل رجال عصره يخاف الحاكم وداعبت مشاعر الخوف فيه بمهارة النساء في تصوير ما يردنه على انه مصلحة لمن يردن منه التنفيذ فقالت"انت تعلم ما يعتقده اخي فيك وانه متى تمكن منك لا يبقي عليك وانا كذلك,وقد انضاف الى هذا ما تظاهر به مما يكرهه المسلمون ولا يصبرون عليه واخاف ان يثوروا به فيهلك هو ونحن معه وتنقلع هذه الدولة" ,ثم وعدته بان يكون هو مدبر الدولة وزادت في اقطاعه مئة الف دينار فاجابها الى غايتها وقتل الحاكم مستعينا بعبدين من عبيده وذلك سنة ٤١١ه/١٠٢٠م ,واخفت موته سبعة ايام ثم

جمعت رجال الدولة والجند واعلنت تنصيب ابن الحاكم ابا الحسن علي الظاهر خليفة وامرت باغلاق ابواب القصر لتعلن للقادة ان هذا الذي قتل مولاكم مشيرة الى ابن داوس ليقتلوه[١٤٨] فتضمن عدم افتضاح سرها وتصبح الوصية ومدبرة امور الخليفة الصغير.

هذا فضلا عن ان كثرة طوائف العسكر من اتراك ومغاربة ومشارقة لم تكلف الدولة فقط الاموال الطائلة من الرواتب والاقطاعات بل ادت كثرة الفتن فيما بين تلك الطوائف لاختلاف جذورها ولعدم وجود ما يوحدها ولتعدد زعاماتها وتصارعهم على الاموال ومراكز النفوذ ادت الى اضعاف الدولة وليست فتنة سنة ٤٠٣ه/١٠١٣م باول تلك الفتن وليست اخرها حيث وقع الخلاف بينهم وشهروا سلاحهم وعمل الحاكم على الاصلاح بينهم[١٤٩],فمعروف ان الدولة الفاطمية قامت على اكتاف المغاربة الذين دخلوا مصر وسيطروا عليها وكانوا نحو مئة الف فارس غير المشاة[١٥٠],الا انهم بعد استقرارهم اصبحوا يخشون المغاربة خاصة ان المغرب مؤهل للانفصال باي ساعة فيميل المغاربة حينها عنهم ويفقدوا ولائهم فعمل المعز لدين الله على تكوين جيش جديد من"اولاد الناس"أي ابناء المصريين وسبي الفرنجة وعبيد الشراء واسكنهم في حجرات خاصة في معسكرات يتدربون فيها منذ طفولتهم واصبحوا طائفة مهمة عرفت باسم صبيان الحجر وعددهم قرابة الخمسة الاف واغلب القادة والوزراء الذين تولوا المناصب في الدولة هم منهم,كما اصطنع العزيز بالله الديلم و الاتراك وعرفوا بطائفة المشارقة,والطائفة الاخرى هم السود واكثرهم من النوبة وهم الذين استخدمهم الحاكم لحرق القاهرة ووقف بوجههم الاتراك والمغاربة,كما استخدم الفاطميون طائفة اخرى وهي البدو الذين هاجروا الى مصر وهم من ابناء القبائل[١٥١], وطائفة تسمى الباتليين وهم من المغرب ايضا سبقوا المعز الى مصر وعددهم خمسة عشر الف فارس,وطائفة تسمى المصامدة وعددها عشرون الف رجل[١٥٢].

ويبدو ان الذي دفع المعز لدين الله ومن تولى الخلافة بعده لتكوين جيش غير المغاربة هو الثورات غير القليلة التي قام بها هؤلاء منذ اول ايام دخولهم لمصر ففي ايام جوهر الصقلي وتحديدا سنة ٣٦١ه/٩٧٢م قام المغاربة بنهب الناس في مصر فثارت الفتنة بينهم وبين المصريين واقتتلوا قتالا شديدا وقام جوهر بتعويض ما نهبوه[١٥٣],وتكرر نفس الشي سنة ٣٦٢ه/٩٧٣م فنهب المغاربة دور الناس وقبض جوهر الصقلي عليهم وجلدهم [١٥٤],وفي نفس السنة جدد المغاربة نهبهم للمصرين ودورهم في نواحي القرافة والمعافر واخرجوهم من ديارهم وسكنوا فيها وسمح المعز للبعض منهم ان يسكنوا في مصر ويخالطوا المصريين بعد ان كان جوهر قد منعهم من ذلك وفرض عليهم السكن خارج المدينة وان لا يبات احدهم في مصر[١٥٥], وفي سنة ٣٦٣ه/٩٧٤م ثار المغاربة ايضا ونهبوا الناس فقبض المعز على جماعة منهم[١٥٦], فصدق الله العليم حين قال"قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون"[١٥٧], فهذا ما يفعله جيش غريب حين يدخل الى بلد ويتمكن من اهله فتن وثورات ونهب, اشاع الفوضى والخوف والترقب فكان له ابلغ الاثر على استقرار البلاد الاقتصادي وكان هو السبب وراء اكثر المجاعات التي شهدتها مصر الفاطمية,ولا يمكن القول

بان الجوع دفع الجند للثورة والنهب[١٥٨]فالفتن والقلاقل قطعت الطرق امام الغلال التي تاتي من خارج مصر كما ان افتقاد الامن حال دون زراعة الاراضي في اوقات الفتن,وكثرة من مات وقتل انقصت الايدي العاملة.

وبتولي الظاهر لمنصب الخلافة تتكرر الماساة كون الخليفة صغير السن لم يتجاوز السادسة عشر من العمر والمتصرف الحقيقي في الدولة عمته ست الملك التي دبرت قتل الحاكم ونصبت الظاهر واقامت سيف الدين الحسين بن دواس والوزير عمار بن محمد ثم قتلت بن دواس لينفرد عمار في التدبير الى ان دبرت قتله هو الاخر لتبقي الامور بيد علي بن احمد الجرجرائي الذي انفرد بالسلطة بعد موتها وهو ابتر اليدين بترهما الحاكم لخيانته[١٥٩]، واشرك الظاهر القائد معضاد وهو عبد اسود مع الجرجرائي في تسيير امور الدولة فكانوا يتصرفون في كل شي وهو مشغول بلذاته ولا يدخل غيرهم عليه ولا يقابل احدا ومن الطبيعي في هكذا حال واهمال من الخليفة لرعيته ان تبرز المشاكل وتتفاقم فكانت ازمة ومجاعة سنة ٤١٥ه/١٠٢٤م رغم ان حد النيل في تلك السنة قد بلغ حد الوفاء الذي لا تنقص الاقوات معه ورغم ذلك فقد عزت الاقوات واضطرب الناس وتحركت طوائف الجند والعبيد ونهبت الدور وقافلة الحج فلم يحج احدا من مصر تلك السنة وانتشر الخوف والقتل فمات مائة وسبعون الف انسان وتظاهر الناس وصاحوا الجوع الجوع يا امير المؤمنين فالله الله في امرنا فاباحت الدولة للناس قتل من يتعرض لهم من العبيد, واضطر الخليفة نفسه الى الاقتراض من وجوه البلد والتجار"واصبح الناس بمصر على اقبح حال"[١٦٠]، فما سبب ذلك والنيل قد فاض ووفى واين اموال الدولة واين سيطرتها على امنها الداخلي؟ انشغل الخليفة بلذاته وانفق عليها ما يحتاجه في مثل هكذا مسبغة فلم يكن له حول ولا قوة.

ووقعت في خلافة الظاهر فتنة جديدة بين طوائف الجند حيث اندلع القتال بين المغاربة والاتراك وقتل منهم الكثير وغلب المغاربة واخرجوا الاتراك من مصر"وكان خبط عظيم"[١٦١], ويبدو ان طوائف الجند قد بلغت حدا من التمرد وعدم الائتمار بامر الخليفة يقتتلون متى ما شاؤا ولا نهي له عليهم ولا امر وجلّ ما يستطيعه ان "بعث اليهم بالصلح فمشى الدعاة بينهم حتى اصطلحوا"[١٦٢], فلنا ان نتصور حال مدينة صغيرة مثل القاهرة ومصر وحال اسواقها وتجارتها و فيها كل هذه الاعداد من الجند المتناحرين.

ومن اكبر الادلة اثباتا لما ذكرناه من انه ليس النيل ونقص الفيضان هو سبب الغلاء والمجاعات بل ضعف الخلافة والقلاقل الداخلية وعدم اعتماد حلولا ناجعة ما ورد في اخبار سنة ٤٢٢ه/١٠٣١م حيث"نقص النيل نقصانا فاحشا"[١٦٣] ورغم ذلك لم يحدث غلاء ومجاعة لان الخلافة احسنت اختيار الحل و"حملت غلال كثيرة من الشام"[١٦٤].

توفي الظاهر سنة ٤٢٧ه/١٠٣٦م وتولى بعده ابنه ابو تميم معد المستنصر وعمره سبع سنوات فقط ولم تعرف مصر خليفة اضعف شخصية وتدبيرا منه فبعد موت الوزير الجرجرائي الذي سير امور

الخلافة حتى سنة ٤٣٦ه/١٠٤٥م ظهر ضعف الخليفة وتقلب رايه واثر سيطرة امه عليه وتحكمها بالدولة, وام المستنصر كانت امة سوداء لتاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التستري باعها للظاهر فتسرى بها واستولدها المستنصر فقربت سيدها التستري ورقت منزلته وولته النظر في ديوانها الا انه كان يخاف الجرجرائي فلم يظهر طموحه, فلما مات الاخير ظهر تسلط التستري واثر على المستنصر ليولي الوزارة ابا نصر صدقة بن يوسف الفلاحي وكان يهوديا قد اسلم ولم يكن له من وزارته سوى الاسم اذ حاز التستري السلطة الفعلية فنقم الفلاحي عليه ودبر له وقتله وبقتله اثار غضب ام الخليفة ولم تهدأ حتى صرفته عن الوزارة وقتلته سنة ٤٣٩ه/١٠٤٨م[١٦٥].

تجسد ضعف الخليفة وسذاجة شخصيته بابشع الصور فكان يولي الوزير وما يلبث ان يخلعه لوشاية او تدخل من امه او حتى من افراد الشعب العاديين اذ "خالط السلطان الناس وداخلوه بكثرة المكاتبة فكان لا ينكر على احد مكاتبته فتقدم منه سفساف وحظى عنده عدة اوغاد وكثروا حتى كانت رقاعهم ارفع من رقاع الرؤساء والجلة وتنقلوا في المكاتبة الى كل فن,حتى انه كان يصل الى السلطان في كل يوم ثمانمائة رقعة فتشبهت عليه الامور وتنقضت الاحوال"[١٦٦], فكان له فقط بين سنتي ٤٥٠ه/١٠٥٨م و٤٦٦ه/١٠٧٤م اربعة وخمسون وزيرا واثنان واربعين قاضيا[١٦٧], "وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم وان الوزير منذ يخلع عليه الى ان ينصرف لا يفيق من التحرز ممن يسعى عليه عند السلطان"[١٦٨],وبلغ تقلب راي الخليفة ان من وزرائه من بقي في منصبه عشرة ايام ومنهم يوما واحدا فقط [١٦٩].

انعكست هذه الفوضى السياسية على اقتصاد الدولة وبدات الاسعار بالارتفاع منذ سنة ٤٤٧ه/١٠٥٥م[١٧٠],وخربت اعمال الدولة واغتصب الرجال احسن الاراضي فقل الخراج وعجز المستنصر عن دفع رواتب الجند والامراء فتجراوا عليه واجبروه على بيع مدخرات القصر وجواهره واثاثه "ثم لما علموا انه لم يبق ما يخرج لهم تقاسموا الاعمال وتشاحنوا على ما زاد من الارتفاع وكانوا يتنقلون فيها بحكم غلبة من يغلب صاحبه عليها ودام ذلك بينهم سنوات نحوا من ست" [١٧١],وهذه السنوات الست هي التي انتجت ما عرف بالشدة العظمى او الشدة المستنصرية"الى ان ال الامر الى حدوث الشدة العطمى" [١٧٢].

وفي خضم كل تلك الفوضى وانعدام الامن قام المستنصر بما زاد من سوء الحال يوم خرج سنة ٤٥٤ه/١٠٦٢م للنزهة مع جنده وشربوا الخمر بسقايات زمزم وكانهم في طريق الحج وقتل احد جنود الخليفة الاتراك المخمورين احد العبيد لتثور الفتنة التي الت الى خراب مصر حيث قتل العبيد التركي فاجتمع الاتراك ودخلوا على المستنصر الذي انكر ان يكون امر بقتل التركي صاحبهم او رضي بذلك فخرجوا يريدون الانتقام من العبيد ووقعت بينهم حروب انهزم فيها العبيد الا ان ام المستنصر كانت تمد العبيد سرا بالسلاح والاموال فهم خاصتها وطائفتها فعلم الاتراك بفعلها واجتمعوا على المستنصر

واغلظوا له الكلام واهانوه وبدوره انكر على امه تصرفها وندب الوزير ابن المغربي للوساطة والاصلاح بين الطائفتين(١٧٣).

استمرت الفوضى واستمر ارتفاع الاسعار لتبدا الشدة العظمى سنة ٤٥٧ه/١٠٦٥م والتي سببها"ضعف السلطنة واختلال احوال المملكة واستيلاء الامراء على الدولة واتصال الفتن"(١٧٤) ,فتعطلت الزراعة"ينزل النيل ويطلع ولا يجد من يزرع لاختلاف الولاة والرعية"(١٧٥)،وافتقد الامن واصبح خروج الانسان من بيته فيه خطورة كبيرة لانتشار الخطف والسلب واكلت الكلاب والقطط(١٧٦).

تمر السنوات والمستنصر في تخبطه السياسي يولي الوزير ليخلعه بعد ايام وطوائف الجند تتمادى في تمردها "فقويت شوكة الاتراك واشتد باسهم وطلبوا الزيادات في واجباتهم ورواتبهم"(١٧٧)، وام المستنصر تكثر من عبيدها حتى صاروا"نحو خمسين الف عبد"(١٧٨)، وحرضتهم على الاتراك وجهزتهم للقتال وانفقت على تجهيزهم مليون دينار ووقعت بينهم معارك انتهت بهزيمة العبيد الى صعيد مصر وعاد الاتراك بقيادة ناصر الدولة أبي علي الحسن ابن الامير ابي الهيجاء ابن حمدان الى القاهرة وقد علت اقدامهم اكثر وسائهم ان بقايا العبيد قد تجمعوا في صعيد مصر فشكوا ذلك الى المستنصر وضغطوا عليه فدبرت امه هجوما عليهم بمن بقي معها من العبيد على حين غفلة فقتل من الاتراك جماعة وهرب ابن حمدان الى ظاهر القاهرة وتجمع اليه الاتراك واستعدوا لحرب العبيد ووقعت بينهم معارك عنيفة استمرت اياما واثخن ابن حمدان في العبيد قتلا وطاردهم الى الاسكندرية وهزمهم وولاها لاحد ثقاته وذلك سنة ٤٥٩ه/١٠٦٧م(١٧٩).

وكلما حقق الاتراك نصرا على العبيد طغوا اكثر وزادت وطاتهم على الخليفة فزادوا من مطالبته بالاموال وكانت مقرراتهم في الشهر ثمانية وعشرين الفا فاصبحت بعد هذه الاحداث اربعمائة الف دينار واصبحوا يحاصرون الخليفة ويطالبونه بالاموال فيخرج ما بقي في قصره من جواهر ونفائس ووقعت معارك اخرى بينهم وبين العبيد في صعيد مصر هذه المرة وتمكنوا من هزيمتهم وقتل اغلبهم لتزول طائفة العبيد في سنة ٤٦٠ه/١٠٦٨م,فاستباحوا بيوت الاموال واقتسموا الولايات واشتد باسهم على المستنصر فانخرق ناموسه وتناقصت حرمته وقلت مهابته(١٨٠) .

تداعت الامور اكثر سنة ٤٦١ه/١٠٦٩م وكثر الخوف واشتد السلب والقتل نهارا في الطرقات وصار الجند فرقتين واحدة مع الخليفة وواحدة مع ابن حمدان اذ اختلف الاتراك فيما بينهم وحسدوا ابن حمدان على ما يناله من اموال المستنصر واجبروا المستنصر على تهديده وطرده خارج مصر بعد ان وعدوه بنصرته ففعل وخرج ابن حمدان الى الجيزة وجمع اصحابه وهاجم القاهرة ووقع قتال بينه وبين الخليفة ومن سانده من الجند واهالي مصر وانهزم ابن حمدان الى خارج القاهرة ثم عادوا واقتتلوا ثانية لانه ابن حمدان نوى الخطبة باسم العباسيين وتسليمهم مصر وانتصر هذه المرة على جيش الخليفة لتتعقد الامور اكثر اذ لجا الى حصار القاهرة ومنع أي طعام ان يدخلها واستمر بطلب الاموال من المستنصر

حتى اخذ منه ثيابه واخرجت الاف الكتب والمخطوطات من دار العلم بالقاهرة وبيعت ووصلت المغرب واحرق اغلبها هناك من قبل المغاربة الذين اعتبروها كتب المشارقة المخالفين لمذهبهم, واشتد الجوع اكثر فمات الالوف جراء القتل والفتن فكانت الجثث ترمى في النيل او في الحفر الكبيرة ويهال عليها التراب بعد امتلائها بالنساء والرجال, وخلا قصر الخليفة الا من بساط يجلس عليه وياكل مما ترسله له احدى نساء القاهرة صدقة وذهب وقاره وتعطلت دواوينه وبعث اولاده الى الاطراف لشدة البلاء وانعدام القوت [١٨١], وخرجت نساء الخليفة تردن الفرار الى بغداد ومات اغلبهن في الطرقات[١٨٢].

انتهت هذه الماساة سنة ٤٦٦ه/١٠٧٤م حين استنجد المستنصر ببدر الجمالي واليه على عكا فجاء مصر بجيشه واخمد الفتن واصلح حال الدولة بعد ان وعده الخليفة بتملك البلاد واشترط الجمالي ان لا يبقي في مصر احدا من جندها ولا وزرائها ولم يكن بوسع الخليفة الا الموافقة فدخل الجمالي مصر وامن امرائها ثم دبر لهم كمينا في ليلة واحدة وقتلهم ليخلو له الميدان وينفرد بحكم البلاد حتى سنة ٤٨٧ه/١٠٩٤م ليخلفه في الوزارة ابنه الافضل شاهنشاه[١٨٣].

دائرة الضعف دائرة مفرغة لا يمكن الخروج منها الا الى ضعف اكبر فضعف الخلافة ادى الى تسلط الوزراء والجند فكانت الشدة, والشدة زادت من ضعف الخلافة ولا يصح القفز الى النتيجة وجعلها سببا والقول ان المجاعة ادت الى ضعف الخلافة[١٨٤] فلماذا لم تضعف الوزراء بل على العكس زادتهم قوة واثرت في الخلافة لانها الحلقة الاضعف اصلا,فبتولي بدر الجمالي للوزارة سنة ٤٦٧ه/١٠٧٥م انتهى عهد وزارة التنفيذ واصبحت وزارة تفويض يعطي فيها الخليفة كل صلاحياته للوزير صاحب السيف دون الرجوع اليه ولقب بامير الجيوش[١٨٥], فمما ورد في سجل تولية بدر الجمالي للوزراة "وقد قلدك امير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره"[١٨٦], لتصبح سيطرة الوزراء على السلطة بتفويض رسمي منذ عهد المستنصر .

مات المستنصر بعد بدر الجمالي باشهر في سنة ٤٨٧ه/١٠٩٤م وكان قد عهد بولاية العهد لاكبر ابنائه ابو المنصور نزار الا ان الافضل ابن بدر الجمالي سارع الى القصر فور موت المستنصر ونصب اصغر ابنائه أبي القاسم احمد ابن المستنصر ولقب بالمستعلي وذلك لان المستعلي هو زوج اخت الافضل ست الملك ولانه صغير السن[١٨٧], وكذلك لكراهية قديمة بين نزار والأفضل[١٨٨],وفي هذا انقلاب خطير على اسس الفكر الفاطمي الامامي الذاهب الى وجوب ولاية الابن الاكبر[١٨٩],مما ادى الى انقسام الاسماعيلية الامامية الى نزارية ومستعلية مما زاد من ضعف الخلافة وانقسام الاتباع [١٩٠],وما كان من نزار الا ان هرب الى الاسكندرية ومعه محمود بن مصال التركي ووالي الاسكندرية يومئذ افتكين التركي وبايعه اهالي الاسكندرية وتلقب بالمصطفى لدين الله فحاربهم الافضل وتمكن من اسرهم وجلبهم الى القاهرة ودفن المستعلي اخاه الاكبر حيا وذلك سنة ٤٨٨ه/١٠٩٥م[١٩١].

مات المستعلي سنة ٤٩٥ه/١١٠٢م وقيل قتل بالسم بعد حكم دام ثماني سنوات لم يكن له فيها الا اسم الخليفة اما حقيقة السلطة وتدبير الامور فكان بيد وزيره الافضل وشهد عهده مزيدا من الضعف فانفصلت الاقاليم وسيطر الفرنجة والاتراك على اكثر مدن الشام(١٩٢).

نصب الافضل بعد المستعلي ابنه ابا علي المنصور ولقبه بالآمر باحكام الله وله من العمر خمس سنوات فحجر عليه في قصره وبقي منفردا بحكم البلاد كما كان في خلافة المستعلي(١٩٣)، وتمادى في تجريد الخليفة من كل حق وصلاحية فبنى قصرا على النيل جنوب الفسطاط خارج القاهرة العاصمة السياسية اسماه دار الملك واقام فيه منذ سنة ٥٠١ه/١١٠٨م ونقل كل دواوين الخليفة اليه ومنع الخليفة من الركوب في العيدين وجعل مادبة العيدين تقام في دار الملك(١٩٤)، وانشغل باللهو والترف وجمع الاموال واهمل مدافعة الفرنجة فوقعت بايديهم عكا وطرابلس وجبيل وبانياس وبيروت وصيدا بايديهم (١٩٥)، وانتهت وزارته سنة ٥١٥ه/١١٢١م باغتياله من قبل النزارية وقيل بتدبير الآمر(١٩٦).

عين الآمر بعد الافضل ابا عبد الله بن فاتك المامون البطائحي وزيرا له وبما اشترطه عليه افصح عن اولوياته في ان لا تكون الاموال الا في القصر ولا تخزن الكسوات ولا تفرق الا فيه ومنه ,وتكون مادب الاعياد فيه, وتحصل الزيادة في رواتب القصور مقابل ان لا يسمع لواش في الوزير ولا يحط من قدره ولا يغدر به(١٩٧)، فلم يشترط على وزيره الا ما يضمن ابهة الخلافة وترفها.

تمكن الامر من استرجاع سلطته وعمر ما خربته الشدة العظمى واعاد احتفلات القصر الى سابق عهدها الا انه لم يتمكن من اصلاح ما فسد بين الفاطميين انفسهم من الانقسام بين نزارية ومستعلية رغم انه حاول ذلك يوم جمع رؤوس الاسماعيلية وكبار الدعاة وشهدوا بان المستنصر قد ولى المستعلي وان نزار ابن المستنصر بايع اخاه بحضورهم كما شهدت بذلك اخت المستنصر فكتب بكل ذلك الى الدعاة والولايات ولكنه لم يفلح بالقضاء على دعوة النزارية وجائته الاخبار بانهم يبثون الدعاة للطعن في شرعية خلافته ويدبرون لاغتياله مع وزيره فدخلت البلاد في جو من الاجراءات الامنية المشددة للبحث عنهم فامر كل احياء البلاد بتقديم اسماء ساكنيها وعدم السماح لاي غريب بالدخول الا بعد التثبت من اسمه والهدف من زيارته وراقب حتى القوافل ومحص اسماء المسافرين بين الولايات(١٩٨).

ثم ما لبث الود بين الخليفة ووزيره ان تعكر اذ بلغ الامر ان البطائحي قد راسل الامير جعفر ابن المستعلي يعزيه بمقتل اخيه نزار الخليفة وانه اوفد رسولا الى اليمن يامر واليها بضرب السكة باسم الامام المختار محمد بن نزار,ويقال ان البطائحي قد حاول سم الخليفة فقبض عليه وقتله وارسل بطلب رسوله الى اليمن وذلك سنة ٥١٩ه/١١٢٥م(١٩٩)لتنتهي بقتله فترة الاستقرار والازدهار ويعود الحال الى الاضطراب.

لم يكن الامر على دراية بكيفية تسيير الدولة ولا عاد يثق بوزير بعد تجربته مع الافضل والبطائحي فلم يتخذ وزيرا واكتفى بتعيين مستوفيين للزكاة والخراج احدهما مسلم هو جعفر بن عبد المنعم بن ابي

قيراط والاخر يهودي هو ابو يعقوب ابراهيم وكانا يدخلان عليه ويحلفان كل على كتابه المنزل ان لا يظلما الناس ولا ياخذان الا ما للدولة من حق في اموالهم,وفي سنة ٥٢٠ه/١١٢٦م تقرب اليه ابو نجاح ابن فنا المعروف بالراهب وهو نصراني وذكر له ان النصارى الاقباط قد اخذوا اموال الدولة وانه ان ولي ديوانهم سيملا خزانة الدولة اموالا فولاه ولقبه بالاب القديس الرواحاني النفيس ابي الاباء سيد الرؤساء مقدم دين النصراينة فبدا عمله وما لبث ان اكثر من مصادرة الاموال والحيف على النصارى ثم عم اذاه ليشمل المسلمين ايضا فلم يبق تاجرا او قاضيا او كاتبا او عاميا الا وناله اذى الراهب فظج الناس وهاجر الكثير من التجار نجاة باموالهم وانهى بذلك فترة الرخاء التي عرفتها مصر قبله فقتله الآمر سنة ٥٢٣ه/١١٢٩م [٢٠٠], وبعدها بسنة تمكن مجموعة من النزارية من التسلل الى القاهرة واغتيال الآمر رغم احتياطاته الامنية [٢٠١].

لم ينهي النزارية حياة الامر فقط باغتياله بل طعنوا الخلافة طعنة عمقت جراحها وزادتها ضعفا اذ لم يترك الامر وريثا[٢٠٢] الا ما قاله غلاماه العادل برغش وهزار الملوك جوامرد من انه ترك احدى نسائه حاملا وقد راى في منامه ان المولود ذكرا وهو الخليفة من بعده فسارعا الى ابن عمه الامير عبد المجيد اكبر الاقارب سنا ونصباه كفيلا لمنتظر في بطن امه ولقباه بالحافظ لدين الله على ان يكون هزار الملوك وزيرا له وخلع عليه بخلع الوزارة ولم ينتظر الجند طويلا للوثوب على السلطة فالدولة بلا خليفة ولا حتى وريث فقدم الجند مشهدا شديد التعبير عن تداعي الخلافة وتصرف الجند والغلمان بها فغلاما الامر وبذكاء كبير نصبا الحافظ ليكون غطاءً شرعيا لسيطرتهما وتوليهما الوزارة وباقي الجند تجمعوا عند باب القصر فور علمهم بتولي هزار الملوك الوزارة وتوافقوا بينهم بينهم على وزارة احمد ابن الافضل ابن بدر الجمالي ولم ينفضوا حتى اجبروا الحافظ على قتل وزيره ذات اقصر وزارة في تاريخ الدولة والخلع على من اختاروه وزيرا[٢٠٣].

ورغم ان الجند حققوا غايتهم الا انهم قاموا بنهب القاهرة وطافوا شوارعها وراس هزار الملوك على رماحهم[٢٠٤], وهذا تعبير اخر عن استهتار الجند بحيث حتى اذا احتفلوا داخل احتفالهم نهب وسلب وتخريب.

اول اجراء اتخذه ابن الافضل هو سجن الخليفة وتجريده من كل صلاحياته ومظاهر الخلافة وازالة اسمه من العملة ونقش عليها اسمه كنائب عن الامام المنتظر "الامام المهدي القائم بامر الله حجة الله على العالمين, نائبه وخليفته الافضل ابو على احمد"[٢٠٥] كما خطب للامام المنتظر[٢٠٦], لم يطل الوقت بابن الافضل حيث وثب عليه جماعة من صبيان الخاص سنة ٥٢٦ه/١١٣٢م بقيادة يانس الارمني وقتلوه واخرجوا الحافظ من سجنه وبايعوه مجددا كفيلا لامام مستودع وخلع على يانس بالوزارة اعترافا بفضله على الخليفة, ونهب في هذا اليوم "كثير من الاسواق والدور والحوانيت وصار ذلك عادة مستقرة وشيئا معهودا" [٢٠٧],وسار يانس على خطى من سبقه فبدا في من يشك في معارضتهم وهم صبيان الخاص اذ راى انهم تجراوا على الملوك وقويت شوكتهم فقاتلهم وقتل اكثرهم فاشتد امره على

الحافظ الذي دبر لقتله مع طبيبه "اكفني امره بماكل او مشرب" وكان ذلك فعلا فمات بعد تسعة اشهر من توليه الوزارة[٢٠٨].

لم يتخذ الحافظ بعد يانس وزيرا اتعاظا منه بفعل الوزراء وتسلطهم عليه واكتفى بتولية ابنه سليمان ولاية العهد ومنحه صلاحيات الوزير الا ان الاقدار عارضته اذ مات سليمان بعد توليته بشهرين فولى ابنه الثاني حيدرة مكانه فحسده الاخ الثالث حسن ونمت العداوة بينهما لتصل سنة ٥٢٨ه/١١٣٤م الى حد الاقتتال ولحيدرة طائفة تعرف بالريحانية ولحسن طائفة تدعى الجيوشية وقتل قرابة الخمسة الاف رجل خسرتهم الدولة اغلبهم من الريحانية فتمكن الامر لحسن ابن الحافظ والتف حوله اوباش العسكر واختفى الحافظ خوفا منه ثم حاول تهدئة الامور فولاه عهد الخلافة ولكن ذلك لم يخفف من وطاته على ابيه فعمل الحافظ على جمع الريحانية من الصعيد والرجال ونازله ثانية وانكسر امامه ايضا فلجأ الى الايقاع بينه وبين رجاله ونجح في ذلك اذ قام حسن بقتل العديد من امرائه الذين كاد لهم ابوه فكرهه الجند وعامة الناس لقسوته وكثرة مصادرته للاموال وبطشه فاجتمع الجند عليه ولم يقوى على مقاومتهم فهرب الى قصر ابيه الذي حاصره الجند واجبروا الحافظ على قتل ابنه بعد تهديده باحراق القصر وقتله واولاده فاستدعى طبيبا يهودي "وفاوضه في عمل سقية لابنه...لا يتقطع منهاالجسد بل تفيض النفس لاغير" واجبره على شربها فمات ولم يقبل الجند الا بدخول احدهم عليه وطعنه بسكين في عدة مواضع من جسده ليتيقن من موته وذلك سنة ٥٢٩ه/١١٣٥م[٢٠٩],أي ضعف وصلت له الخلافة وتشتت ليثور الابن على ابيه ويقتل الاب ابنه تحت لمعان سيوف الجند اصحاب الكلمة الاولى والاخيرة.

وفي سنة ٥٢٩ه/١١٣٥م وصل القاهرة بهرام الارمني والي الغربية مع جيش من الارمن قيل انه جاء باستدعاء من الحافظ , وما ان دخل القاهرة حتى انتشر جنده ينهبونها وادخله الجند على الحافظ واجبروه على توزيره وهو ارمني نصراني ولقبه بسيف الاسلام فشق ذلك على المسلمين وزاد اذى النصارى لهم وتكاثر الارمن بالقاهرة وبلغوا ثلاثين الفا واكثروا من بناء الكنائس والاديرة "فخاف الناس منهم ان يغيروا الملة الاسلامية" [٢١٠],أي اقتصاد يقاوم هذه الالاف من الجند وهذا النهب المنظم المتكرر والانشغال بالفتن والقلاقل؟ استنجد امراء البلاد برضوان بن ولخش والي الغربية فجاء بعسكره الى القاهرة سنة ٥٣١ه/١١٣٧م وهرب بهرام بعد تخلي الجند المسلمين عنه واخذ ما قدر عليه من الاموال وتوجه الى بلاد النوبة حيث بني دينِه ونهب ما مر به من المدن ليتولى رضوان الوزارة بعده[٢١١].

وما هي الا فترة وجيزة حتى برز العداء بين الخليفة ووزيره فحرض الخليفة جنده على رضوان واجتمعوا عليه فهرب منهم الى بلاد الشام سنة ٥٣٣ه/١١٣٩م حيث جمع جيشا من الاتراك وقدم بهم الى القاهرة الا انهم تخلوا عنه وطلبوا الامان من الخليفة ليقع رضوان اسيرا في قصر الحافظ سنة ٥٣٤ه/١١٤٠م[٢١٢]؛ بقي رضوان في سجنه ثماني سنين نجح بعدها بالفرار وجمع ممن يدينون له

بالولاء جيشا ودخل القاهرة بعد التغلب على جند الخليفة وبدا يعد لتولي امور الدولة الا ان الحافظ المحنك بالتدبير والتخلص من اعدائه حرك ضده مجموعة من السودان فقتلوه غيلة سنة ٤٤٢ه/١٠٥١م[٢١٣].

وفي سنة ٤٤٤ه/١٠٥٢م ثارت فتنة جديدة بين الطائفة الجيوشية والريحانية واقتتلوا اشد القتال لايام ذهب ضحيتيها الكثير من الجند من الطرفين وامتنع الناس عن دخول القاهرة ومصر وهمّ العسكر بخلع الحافظ الا ان المنية سبقتهم اليه فمات في قصره عن ست وسبعين سنة[٢١٤].

تولى بعد الحافظ ابنه ابو المنصور اسماعيل الظافر بامر الله وعمره سبعة عشر سنة ولم يكن اكبر اخوته ولكن احترام اسس الفاطميين الفكرية قد اضحت تقليدا عتيقا, وولى وزارته لنجم الدين بن مصال وهو من اكابر الامراء وقد اوصى الحافظ بتوليه الوزارة[٢١٥], ولم يقنع بذلك العادل بن السلار والي البحيرة والاسكندرية وطمع بالوزارة لنفسه وقرر بالاتفاق مع ابن زوجته الامير عباس والي الغربية السير الى القاهرة حيث اجبروا الخليفة على توليته الوزارة ووقع بينهم وبين ابن مصال وقائع قتل فيها خلق كثيرون ومنهم ابن مصال نفسه فاضمر الظافر الكره لابن السلار الذي بادله الكرّة واحتاط كل منهم من الاخر ودبر له فقتل ابن السلار عددا كبيرا من صبيان الخاص الذين يشك في استخدامهم من قبل الخليفة ضده وولى ابن السلار نصر بن عباس ولاية مصر[٢١٦] .

كان سقوط الفاطميين قدرا قد قدر فجعل الخليفة والوزراء والامراء يتسابقون لتحقيق اسبابه فلم يعطوا الفرصة لمصلح لاكمال اصلاحه فهذا العادل بن سلار اسقط الكسوة التي تصدرها الدولة كل سنة لرجالها وتكلفها مالا عظيما واخذ يجاهد الصليبيين في ثغور الشام ويخرج لهم الجيوش والاساطيل ليبدا عباس وابنه نصر والخليفة بالتامر عليه اذ اوحى اسامة بن منقذ لصديقه عباس وهم في احدى الغزوات باستغلال العلاقة الوثيقة بين نصر والخليفة واستئذان الخليفة لقتل ابن السلار واخذ مكانه فوافقهم الخليفة لكرهه لابن السلار فقتله نصر في بيته وهو نائم وذهب براسه للظافر وارسل الى عباس يخبره بالامر فعاد والجيش القاصد عسقلان لفك حصار الصليبيين لها "فسر الفرنج ما جرى" واحتفظوا بعسقلان وآلت الوزارة لعباس سنة٥٤٨ه/١١٥٣م[٢١٧].

توطدت العلاقة بين الظافر ونصر بن عباس كثيرا واصبحوا حميمين يلتقيان كل يوم ويذهب الظافر لدار نصر متنكرا ليسمر معه فاثارت تلك الصداقة امورا اولها في قلب عباس والد نصر حيث خشي جراة ابنه كما يقول المقريزي وان يدفعه الخليفة لقتله كما قتل ابن سلار[٢١٨], كما ينسب لاسامة بن منقذ انه ولثاني مرة يوحي لعباس بان الناس تتكلم في شرف ابنه وان الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء, وفي احد الايام جاء نصر مغتبطا بما اقطعه الخليفة فقال اسامة بن منقذ" ما هي بمهرك غالية"[٢١٩]رب قاتل يقتل بكلمة فنعوذ بالله من كلمة تقتل رجلا او تهتك عرضا, وربما هي كلمة نسبت لابن منقذ وهو برئ منها[٢٢٠], في كل الاحوال قتل نصر الخليفة في داره ودفنه كما قال له ابوه "ازل التهمة عنك كيف شئت"[٢٢١].

قتل الظافر سنة ٥٤٩ه/١١٥٤م وثاني يوم قتله ذهب عباس الى القصر طالبا مقابلة الخليفة وسال زمام القصر(صاحب التشريفات) عن سبب تاخره واستدعى اخوي الخليفة وابن عم لهما وسالهم فقالوا اسال ابنك فانه كان عنده ولم يرجع فكذبهم واتهمهم باغتياله وامر بهم فقتلوا جميعا واخرج ابن الظافر ابو القاسم عيسى وهو ابن الخامسة يحمله على كتفه وبايعه باسم الفائز بنصر الله وجثث القتلى ما زالت لم ترفع "فحصل له فزع واضطراب وما زال مدة خلافته لم يطب له عيش لانه كان يصرع كل قليل"(٢٢٢).

ووصل القصر العبد الذي كان بصحبة الظافر يوم مقتله وكان قد افلت من نصر فروى ما حدث فثار من في القصر والعامة ووقعت مصادمة بين جند عباس وجند القصر وقتل عباس منهم كثيرا وتغلب عليهم الا ان نساء الخليفة كن قد ارسلن الى طلائع بن رزيك يستنجدن به وضمن كتبهن شعورهن فتحرك الى القاهرة نجدة ومروءة واستعدادا لتسلم سلطة هي مطلب كل الرجال ودخلها فعلا ودفن الخليفة المغدور وبايع الفائز الذي قلده الوزارة, اما عباس وابنه وابن منقذ ففروا الى الشام من وجه ابن رزيك وقبض الصليبيون على عباس وابنه وباعوهما للقاهرة حيث قتلا فيها(٢٢٣).

لم يكن لوزير ان يطيع خليفة ليس له فضل عليه في توزير ولا سلطة بل العكس للوزير فضل على الخليفة فالاصح هنا ان نقول ان ابن رزيك وزر نفسه وولى الفائز الخلافة فقط ليحظى بغطاء شرعي يحكم البلاد باسمه , وقد ابتدا وزارته بقتل كل من قد ينافسه عليها فقتل العديد من امرائها مثل ناصر الدين ياقوت صاحب باب الخليفة لان الحافظ انابه في احدى وعكاته وكاد يوليه الوزارة, كما تتبع اعيان الدولة وكبرائها وقتلهم وهاجر منهم الكثير هربا من بطشه(٢٢٤), وكانه لم يكف البلاد ما بها من اجناد فانشا ابن رزيك طائفة جديدة خاصة به من اهل برقة عرفت بالطائفة البرقية(٢٢٥),عامل ابن رزيك مصر كمزرعة يعين فيها الموظفين ليجني ارباحها فأجّر ولاياتها للامراء باسعار ثابتة ولستة اشهر فقط(٢٢٦) حتى يضمن عدم توطن احدهم في الولاية وتمكنه من منافسته, كما احتكر الغلات مما رفع الاسعار وزاد من ضعف الاقتصاد(٢٢٧).

حاولت عمة الخليفة تدبير اغتيال ابن رزيك لتفك اسر الخلافة من قبضته ولكنها فشلت اذ علم بتدبيرها وقتلها فتولت العمة الصغرى رعاية الخليفة الذي لم يطل به العمر فتوفي في الحادية عشر منه(٢٢٨).

بوفاة الفائز وعدم تركه لوريث واجهت الفاطمية مرة اخرى مشكلة لم يحسب لها حساب من جعل وجوب الخلافة في عقب الامام فكيف الحال والامام لم يترك وريث؟ فكان على ابن رزيك ان يجد خليفة جديدا فذهب يوم وفاة الفائز الى القصر وتصرف بطريقة توضح مدى ذهاب مكانة وهيبة القصر والخلافة ومدى تمكن الوزير واستخفافه اذ سال زمام القصر"عمن يصلح في القصر للخلافة؟ فقال: ههنا جماعة فقال: عرفني باكبرهم فسمى له واحدا"(٢٢٩)وكان ابن رزيك يشتري حاجة فيمحص ويتخير ثم اشار عليه الامراء في اختيار اصغر الاقارب وليس اكبرهم فقال لزمام القصر:"اريد منك صغيرا

فقال:عندي ولد الامير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله وهودون البلوغ فقال:علي به"[٢٣٠]وكان عمره احدى عشر سنة ولقب بالعاضد لدين الله وذلك سنة ٥٥٥ه/١١٦٠م [٢٣١].

زادت قبضة ابن رزيك على الدولة في ظل العاضد ويبدو انه لم يكتف بما حازه واراد ان يجمع الوزارة والملك بتخطيطه لتزويج العاضد من ابنته على الرغم من صغر سن العاضد الذي رفض الزواج فحبسه حتى خضع واجاب فثقلت وطاة ابن رزيك فقامت عمة العاضد ست القصور بتدبير اغتياله سنة ٥٥٦ه/١١٦١م[٢٣٢]ولم يمت من فوره بل حمل الى داره وارسل الى العاضد يعاتبه فاقسم العاضد له ان لا علم له ولا دخل في ما جرى فطلب ابن رزيك منه تسليمه عمته فقتلها واوصى بالوزارة لابنه رزيك من بعده[٢٣٣], وهنا وصل ضعف الخلافة الى درجة من الغرابة ان يخاف الخليفة وزيره وهو على فراش الموت وان يورث الوزير ابنه والخليفة موجود.

لم يتغير الحال بموت ابن رزيك وتولي ابنه فقد بقيت السلطة بيد الوزير وان تبدل شخصه وما لبثت ان تتدهور يوما بعد يوم اكثر واكثر بكثرة الطامعين والدافعين الخلافة نحو نهايتها المحتومة فظهر طامح جديد بالملك والوزارة وهو شاور بن مجير السعدي والي قوص الذي اتى القاهرة بقواته وانتزعها من يد رزيك وقتله سنة ٥٥٨ه/١١٦٣م[٢٣٤]ولم يهنا شاور سوى اشهر حتى نازعه امير جديد هو ضرغام مقدم طائفة البرقية فقتل طي ابن شاور اما هو فهرب الى الشام حيث استنجد بنور الدين محمود زنكي وطلب نصرته ليعود الى تملك مصر على ان يعطي لنور الدين ثلث خراجها ويقيم معه فيها احد امراء الشام فارسل معه اسد الدين شيركوه على راس جيش تمكن من دخول القاهرة وقتل ضرغام واعادة الوزراة الى شاور سنة ٥٥٩ه/ ١١٦٤م [٢٣٥],بهذا التطور الخطير انتهى كون النزاعات داخلية بين طامحين لتولي الوزارة وتحولت الدولة الفاطمية الى معدوم ينتظر من يطلق طلقة الرحمة ويعلن نهايتها ويرثها وباستنجاد شاور بالنوريين ودخولهم القاهرة اصبحوا اصحاب الحظ الاوفر بها بعد غدر شاور بهم وتحالفه مع الصليبيين وتمكينه لهم من ابقاء حامية لهم بالقاهرة ليتملص من وعوده لنور الدين تمكنوا من قتله وتوزير صلاح الدين الايوبي كاخر وزير للعاضد الفاطمي وكانت لصلاح الدين كل السلطات دون الخليفة كما هو من قبله من الوزراء ولكنه ابقى العاضد ولم يخلعه الى سنة ٥٦٧ه/١١٧٢م حيث خطب للعباسيين معلنا انتهاء الدولة الفاطمية رسميا وان كانت قد انتهت على ارض الواقع كقوة وهيبة خلافة وسلطان قبل ذلك بكثير[٢٣٦].

ملكوا فترفوا واترفوا ولهووا فانشغلوا وساء تدبيرهم فتغلب الطامحون على ملكهم فزادوا من ضعفهم يخلعونهم وينصبونهم ويقتلونهم كيف شاؤوا فزال ملكهم وانقطع ذكرهم الا من بطون الكتب .

المطلب الثاني

السياسة الخارجية

معروف دور السياسة الخارجية لكل دولة في تحقيق أمنها الاقتصادي خاصة مع محيطها القريب بما تحققه من علاقات ومعاهدات تمكنها من التبادل التجاري مع الدول المجاورة أو مع غيرها مرورا بها لسد حاجتها مما ينقصها من السلع,كما هو معروف دور السياسة الخارجية في استتباب الأوضاع الداخلية للدولة والذي يؤدي بدوره أيضا إلى تحقيق اقتصاد مستقر,من هذا المنطلق فان سياسة الفاطميين الخارجية مع العباسيين من ناحية ومع الروم والاحباش من ناحية ثانية هي سبب مهم من اسباب الازمات الاقتصادية الفاطمية في مصر.

اولا: مع العباسيين:

اختلاف مذهبي وانكار لشرعية خلافة الاخر من كل من الفاطميين والعباسيين تجاه بعضهما وتربص وتدخل سلبي كلما سنحت الفرصة, هذا ما كانت عليه العلاقة بين الفاطميين والعباسيين ونجانب الحقيقية ان حمّلنا الفاطميين فقط مسؤلية ذلك فكلتا الدولتين قامتا على اساس ديني قائم على احقيتهما بالخلافة فكانت العداوة حكما ربطهما الى الابد وانعدمت الفرصة لنشوء علاقة تعايش قائمة على اساس المصلحة المشتركة على اقل تقدير على الرغم من ان عدوهما واحد وهم الصليبيون المتربصون بكل من الطرفين وتنافسهما وعداوتهما ادت الى خسائر عظيمة للأمة الإسلامية وللدولتين اذ ضعفتا وسيطر عليها وزرائهما لتزولا بشكل نهائي, والذي يعنينا من تلك السياسة والعلاقة في هذه الدراسة هو اثرها على ازمات مصر ايام الفاطميين ويتمحور ذلك الاثر في امرين: هما ما انفقه الفاطميون من اموال طائلة لمنافسة العباسيين على حيازة البلدان والنفوذ , وحؤول ذلك التنافس دون قيام تكامل اقتصادي بينهما وبحكم طبيعة مصر الاقتصادية فان المستفيد الأكبر من تلك العلاقة التجارية لو قامت هم الفاطميون.

منذ ان قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب العربي وهي قد وضعت نصب اعينها هدفا اكبر واهم من كل اهدافها الا وهو سيطرتها على البلاد الاسلامية بوصفها الامامة المستودعة العلم الالهي اماما عن امام عن امام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه وتعالى وذلك اهم اسباب انتقالها الى مصر ذات الموقع الجغرافي المتوسط لبلاد المسلمين وذات الثروات المعينة على تحقيق الهدف المامول[٢٣٧]، الا ان مذهبهم الساعين الى نشره بين المسلمين وحكمهم به هو نفسه الذي وضعهم في عزلة عن العالم الاسلامي ذات الغالبية السنية.

لاجل نشر مذهبهم بث الفاطميون دعاتهم في اصقاع الارض يثقفوا الناس بالدعوة الفاطمية ويستميلونهم وكانوا قد قسموا العالم الى اثنتي عشرة جزيرة – ولعل في الرقم رمز للائمة الاثنى عشر– هي العرب والترك والبربر والزنج والديلم والحبشة والخزر والصين والهند والروم والسند والصقالبة[٢٣٨] واعلى منزلة في الدعاة هو داعي الدعاة وله اثنا عشر نقيبا [٢٣٩] نقيب على كل جزيرة

يعرف بالحجة او صاحب الجزيرة وله ثلاثون داعيا لكل منهم اربعة وعشرون داعيا ماذونا وهم الذين يتصلون بالناس, وقسموا مجموع الجزر الى قسمين: بلاد الاعداء في المذهب – وتقع ضمنها دولة العباسيين طبعا– والبلاد الخارجة عن دار الاسلام[٢٤٠]، فكانوا ينفقون على دعاتهم الاموال الطائلة[٢٤١] لسحب البساط من تحت العباسيين والتوسع على حسابهم, فماذا لو انفق الفاطميون تلك الاموال على الجانب الاقتصادي واهتموا بقوت المصريين كاهتمامهم وانفاقهم على الدعوة؟

كان انفاقا سخيا جدا ليغري بعض الولايات وامرائها على الرغم من بعدهم الجغرافي عن الدولة الفاطمية واستحالة تهديدها لهم بقوة عسكرية رغم ذلك خطب للفاطميين في بعض الولايات طمعا في عطاياهم ففي خلافة الحاكم وتحديدا سنة ٤٠١ه/١٠١١م خطبت منابر الموصل والانبار والمدائن والكوفة باسم الحاكم لعدة اشهر[٢٤٢].

ويبدو ان علاقة الخليفة بدعاته كعلاقته بوزرائه ليست دائما ودية من ذلك ما ذكره المقريزي من ان الظاهر هم بقتل دعاته فتحركوا بالكلام عليه وخلعه سنة ٤٢٣ه/١٠٣٢م فانفق اموالا جمة حتى استقر امره[٢٤٣].

وفي اشد الازمات لم يهمل الفاطميون امر الدعوة والانفاق في سبيلها فهذا المستنصر على الرغم مما مرت به البلاد من شدة ايام حكمه قد بث دعاته في خراسان وما وراء النهر وعلى الرغم من سرية دعوتهم تمكن صاحب ما وراء النهر بعد ان امنهم واظهر استجابته لدعوتهم من معرفة عددهم واماكن تواجدهم فقتل منهم سبعة عشر داعيا وتتبعهم في باقي اعماله ليقبض على مئة وثلاثة وثلاثين رجلا منهم وقتلهم وارسل الى بغداد بذلك "فاجيب بالشكر والثناء"[٢٤٤].

وفي سنة ٤٤٨ ه/١٠٥٦م لما سيطر البساسيري على بغداد وطلب نجدة المستنصر ارسل له "الفا الف وثلاثمائة الف دينار"[٢٤٥] وهو مبلغ مهول سيما اذا قيس بما عانته مصر ايام المستنصر من ازمات اكل اهلها خلالها بعضهم الجيف, فاجبر البساسيري الخليفة القائم بامر الله العباسي ان يكتب عهدا بالا يحق للعباسيين ادعاء الخلافة وبنو فاطمة موجودون[٢٤٦], وخطب البساسيري سنة ٤٥٠ه/١١٥٨م للمستنصر في الرصافة فارسل اليه اموالا عظيمة"حيث لم يترك في خزائن اموال القصر شي البتة"[٢٤٧] ووعده بستين الف دينار سنويا[٢٤٨].

كذلك فان من اهم مراكز التنافس الفاطمي العباسي هي بلاد الحجاز التي لا تخفى مكانتها الدينية المقدسة فلاجل ان يحوزوا تبعيتها ويخطب باسمهم في مكة والمدينة خاض الفاطميون معارك وبذلوا ما لا يحصى من اموال مصر, اذ لم يكن بوسعهم ولا العباسيين من قبلهم ضم الحجاز عسكريا فانحصر التنافس في المجال المادي فمن يقوم بالنفقة على الحجاز ويكسو الكعبة ويغدق الاموال على اشراف الحجاز ويرسل المؤن يخطب له على منابره وذلك بسبب قلة الموارد الاقتصادية للحجاز فكان في حاجة دائمة لمن يسنده فكانت تبعيته دولا بين الفاطميين والعباسيين واول مرة يخطب للفاطميين في الحجاز كانت سنة ٣٥٨ه/٩٦٩م ايام المعز[٢٤٩] الذي ارسل اموالا كثيرة وامتعة للحرمين[٢٥٠],الا ان

العباسيين وبالتعاون مع القرامطة تمكنوا سنة ٣٥٩ه/٩٧٠م من اعادة الخطبة في مكة لهم فارسل المعز جيشا من المغرب التقى بالحسنيين اشراف مكة يساندهم القرامطة وانهزم سنة ٣٦٠ه/٩٧١م فلجا الى اثارة الاعراب على وفد الحجيج العراقي فسلبوه وقتلوا الحجيج وعادت الخطبة في مكة والمدينة جميعا للمعز[٢٥١],فاعطى سنة ٣٦٤ه/٩٧٥م جائزة لوفد الحجاز اربعمائة الف درهم[٢٥٢] واعقبها بعد فترة من السنة نفسها بارسال الاموال وكسوة الكعبة[٢٥٣].

وقطع اهل الحجاز الخطبة للعزيز سنة ٣٦٥ه/٩٧٦م وخطب للطائع العباسي فلم يكن من العزيز الا ان ارسل جيشا حاصرهم ومنع دخول القوت اليهم فارتفعت الاسعار بشدة اجبرتهم على اعادة الخطبة للفاطميين[٢٥٤]، الذين لم يتهاونوا في اثبات انهم حماة الاماكن المقدسة ورعاتها, ويبدو من تكرار قطع الخطبة للفاطميين في الحجاز ومن توقيت قطعها الذي تزامن مع كل ضعف يمر به الفاطميون او افلاس او مع نوبات القوة التي تمر بالعباسيين ,يبدو من ذلك ان اعتراف اهل الحجاز بتبعيتهم للفاطميين لم يكن له دافع الا الحاجة لاموالهم واطماع الاشراف بتلك الاموال ولعبهم على وتر التنافس والصراع العباسي الفاطمي لجني الاموال وربح الفاطميون ذلك الصراع بما سخروه من اموال مصر الغنية , غنية ولكن غناها لم ينفع اهلها ويجنبهم مجاعات قلما خلد التاريخ نظيرها قسوة وايلاما وفتكا.

استمر الفاطميون بارسال الاموال الى الحجاز فنادرا ما تخلو اخبار سنة من سنوات حكمهم من اشارة الى ارسالهم الاموال, ففي ٣٦٨ه/٩٧٩م ارسل العزيز صلات الاشراف والقمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب ومحراب من ذهب[٢٥٥].

ويؤكد ما ذكرناه عن الدافع وراء تبعية الحجازيين للفاطميين تهديدهم للظاهر باقامة الدعوة لغيره لانه لم يرسل مقرراتهم سنة ٤١٥ه/١٠٢٤م[٢٥٦], وهي السنة التي شهدت غلاء ومجاعة في مصر تعذر معها الانفاق على الحجاز, وعلى الرغم من عسر ذات يده اعطاهم الف دينار واعطت امه ايضا شيئا من عندها[٢٥٧], ويبدو انهم لم يرضوا بذلك فاخرج لهم "نصف واجبهم" رغم شدة البلاد وترامي جثث الموتى جوعا وقتلا في طرقات القاهرة[٢٥٨].

في سنة ٤٦٢ه/١٠٧٠م وعلى الرغم من بلوغ شدة المستنصر اقصاها في مصر لم يقطع نفقته على الحجاز اذ وصل مبلغ انفاقه في السنة الى مائتي الف دينار الا ان بغداد احسنت قراءة الحال فارسلت لامير مكة ثلاثين الف دينار ووعدته بعشرة الاف في كل سنة وارسلت لامير المدينة عشرين الفاً[٢٥٩], فكان من شان تلك المبالغ ان تغير الولاء وتعلي اسم القائم العباسي على منابر مكة والمدينة ليحفظ الاثير صدى اسماء الفاطميين الذي صدحت به حناجر الحجازيين لمئة عام ملا الفاطميون خلالها جيوب الحجازيين باموال مصر.

انتهى بعد الشدة المستنصرية دور الخلفاء القادرين على تحديد اولويات الفاطميين وصار الحكم شبه طلق للوزراء الذين لم يكترثوا بامر الدعوة الفاطمية واكتفوا بنهب البلاد نهبا منظما لصالحهم فانقطع

الانفاق على الحرمين ليخلوا ميدانه لبني العباس بعد ان بذر فيه الفاطميون بذارا كلفت مصر الثروات ولكنها لم تات لهم بريع دائم.

ثانيا: مع الروم والاحباش:

معروف ان العلاقة بين الفاطميين والروم هي عداء وحروب ومناوشات في اغلب اوقاتها او بطابعها العام ولكن كان هناك قضايا بينهما قد ارست السياسة الخارجية قواعدها ووضعت لها تفاهمات منها: العلاقات التجارية ورعاية مصالح النصارى في مصر مقابل العناية بمن في ارض الكفر من المسلمين وجوامعهم, وكان في مصر الكثير من النصارى تمتعوا بحسن المعاملة وتولوا في دولة الفاطميين اكبر المناصب بما فيها منصب الوزير[٢٦٠], ومتى لم يحسن تطبيق فن السياسة فان مصالح الدولة تتاثر وهذا ما حدث في بعض فترات الدولة الفاطمية وكان له تاثير سلبي على علاقتها التجارية مع الروم وهذا ما سنعرضه في هذه الدراسة بقدر تعلق الامر باثر هذه العلاقة على اقتصاد مصر وازماتها ايام الفاطميين.

اول كدر عكر صفو العلاقة بين الفاطميين والروم كان ايام الحاكم , ومن سوى الحاكم يعكر الصفوات بسرعة غضبه وحدته, في سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م غضب الحاكم على النصارى وليس معلوماً دائما سبب غضب الحاكم والدافع وراء قرارته الا انه يذكر ان سبب غضبه انه سال عما يفعله النصارى في كنيسة القيامة في القدس فرويت له تفاصيل طقوسهم من تقديم القرابين على المذبح واشعال النار الكنسية وما الى ذلك فانكر الحاكم ذلك وارسل "من يهدم قمامة وينهبها الناس حتى يعفى اثرها, ففعل ذلك ثم امر بهدم ما في اعمال مملكته من البيع والكنائس فخوف ان تهدم النصارى في بلدها من مساجد المسلمين فامسك عن ذلك"[٢٦١], ويبدو ان امساك الحاكم عما قرره لم يدم طويلا اذ بدا ضدهم حملة مشهورة من هدم الكنائس واجبار بعضهم على الاسلام او القتل واجبارهم على تعليق صليب من خشب كبير الحجم قد يبلغ حجمه ذراع في ذراع على صدورهم وميزهم باللباس اذ امرهم بلبس عمائم سوداء وان يشدوا الزنار على خصورهم وان لا يركبوا مركبا مع المسلمين وان يركبوا على سروج خاصة بهم والا يدخلوا حمامات المسلمين وكاد يرحلهم عن مصر كلها مما اضطر عددا غير قليل منهم على اظهار الاسلام لينجو منه [٢٦٢].

يبدو ان تلك الممارسات اغضبت الروم حماة النصارى فقطعوا علاقاتهم بالحاكم واوقفوا تصدير ما تحتاجه مصر منها ، يستنتج ذلك من اخبار الظاهر الذي خلف الحاكم اذ قام بفتح كنيسة القيامة وتعميرها وعقد هدنة مع الروم أمدها عشر سنوات [٢٦٣].

وحدث ايام المستنصر انه ارسل رسولا الى القسطنطينية وبينما هو هناك وصل رسول العباسيين واستاذن ملكة الروم للصلاة في جامع القسطنطينية فاذنت له ودخل وصلى وخطب للخليفة العباسي القائم، الآمرالذي اغضب المستنصر فامر باغلاق كنائس مصر والشام وطالب الرهبان بجزية اربع سنوات وزاد مبلغها فساءت العلاقة مع الروم[٢٦٤], فالغت ثيودورا ملكة الروم صفقة تصدير اربعمائة

ألف اردب من الحبوب كان اليازوري وزير المستنصر قد عقدها مع الروم[٢٦٥], وبعلمنا بحجم الشدة التي عانتها مصر ايام المستنصر نستطيع وبسهولة معرفة اثر الغاء الصفقة على مصر فالمستنصر ولاجل الخطبة باسم الفاطميين والتنافس مع العباسيين اغلق منفذا مهما كان من شانه تخفيف ضغط الجوع في مصر.

وتكررت في سنة ٥٣٢ه/١١٣٨م ممارسات الفاطميين تجاه النصارى فقام رضوان وزير الحافظ بمنعهم من ركوب البغال وأجبرهم على التمنطق بزنانير مخالفة لألوان ثيابهم وان ينزلوا من على دوابهم اذا مروا بجامع وان يعطوا الجزية من اسفل مصاطب عالية وهم صاغرون والا يتكنوا بابي الحسن والحسين والطاهر وان يبيضوا قبور موتاهم[٢٦٦], فمن المؤكد ان تؤثر هذه الممارسات على تجارة مصر مع الروم والعالم الخارجي من جهة الشمال فالروم يتحكمون بأكثر سواحل الشام وبمياه المتوسط منفذ مصر على اوربا وواسطتها للإبحار الى بلاد المغرب العربي.

اما منفذ مصر على العالم من جهة الجنوب فهو تحت تأثير الحبشة المطلة على مضيق باب المندب بوابة مصر الى بحر العرب والشرق الأقصى والحبشة نصرانية تتحدد علاقتها بمصر بمثل محددات علاقة مصر بالروم من حيث حسن معاملة رعاياها النصارى في مصر فضلا عن انها حليف الروم القديم في المنطقة واثر الحبشة على اقتصاد مصر أقوى واخطر من اثر الروم فاضافة الى تحكمها بباب المندب فان النيل يمر بأراضيها قبل وصوله السودان ومصر وقد أورد المسبحي المؤرخ المصري في كتابه أخبار مصر نصا خطير المعنى والدلالة فقال في عرضه لتاريخ الحاكم انه عندما توقف النيل عن الزيادة في عهده وقيل له ان هذا من فعل الأحباش الذين غيروا مجرى النيل امر بطرك النصارى ان يتوجه الى الحبشة فذهب واخبر ملكها بحال مصر وما وقع بالبلاد من ضرر "فامر ملك الحبشة بفتح سد عندهم يجري منه الى مصر ماء النيل لاجل ان البطرك قدم عليه, فزاد النيل في تلك السنة زيادة قوية حتى اوفى"[٢٦٧], ومما يدعم هذا الكلام ان المقريزي بعد ذكره لما فعله رضوان وزير الحافظ بالنصارى من اضطهاد يذكر مباشرة :"ونزع السعر لتوقف النيل فنال الناس مجاعة"[٢٦٨], كذلك فان سعي الحبشة والصليبيين لتغيير مجرى النيل ومنعه من المرور باراضي مصر هو مشروع قديم طالما ناغم عقول الصليبيين وحليفهم القديم الحبشة، ففي سنة ٨٥٤ه/١٤٥٠م ارسل زرء يعقوب ملك الحبشة سفارة برئاسة راهب حبشي اسمه ميخائيل وبصحبته مترجم من مسلمي صقلية وزارت السفارة روما حيث قابلت البابا ثم زارت نابولي ومنها الى ارغونة لمقابلة الفونسو الخامس وبحث التحالف معه وكانت نتيجة ذلك المسعى ان عادت السفارة الى الحبشة وبصحبتها عدد كبير من الحرفيين الاوربيين ليعملوا مع الاحباش على تحويل مجرى نهر النيل ليقضوا على مصر[٢٦٩], وجدير بالذكر ان هذا المشروع ما زال يداعب اذهان يهود الكيان الصهيوني ويسعون لتحقيقه مع الاحباش ويبذلون له الافكار والاموال.

الخاتمة

ان ابرز النتائج التي توصل اليها هذا البحث هي:

١- لم يكن النيل السبب في وقوع الازمات الاقتصادية في مصر الفاطمية بل ضعف الخلافة وتسلط وزرائها عليها والفتن التي اثارتها طوائف الجند المتعددة.

٢- استخدام مصطلح غلاءات اصح واكثر تدليلا على حقيقة ازمات مصر الفاطمية من مصطلح قحوط لان اغلب تلك الازمات وقعت والنيل قد وفى والقوت في مخازن المحتكرين فارتفعت الاسعار وكان الجوع.

٣- عدم كري الانهار سبب للمجاعات وليس نتيجة ، اذ اهمل الفاطميون نظام الري فانخفضت مساحة الارض المزروعة بالتزامن مع زيادة عدد سكان مصر بمن سكنها من المغاربة الذين جاؤوا مع الفاطميين وبنسبة الزيادة الطبيعية للسكان فقصرت الزراعة عن سد الحاجة.

٤- قد كان للحبشة دورا في نقص مياه النيل بسدود أقامتها عليه في أراضيها ولم تراعِ التوزيع العادل للماء لاسيما مع اهمال الفاطميين للتفاهم معها والوصول الى تقسيم عادل يحقق النفع للدولتين.

قائمة المصادر والمراجع

بعد القران الكريم:

المصادر:

١- ابن الاثير, أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت ٦٣٠ه/١٣٣٢م).

- الكامل في التاريخ, تحقيق: عبد الله القاضي,ط٢(دار الكتب العلمية,بيروت :١٤١٥ه /١٩٩٥م).

٢- ابن تغري بردي, جمال الدين ابو المحاسن يوسف(ت ٨٧٤ه/١٤٦٩م).

_ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة,قدمه وعلق عليه:محمد حسين شمس الدين,ط١ (دار الكتب العلمية, بيروت:١٤١٣ه/١٩٩٢م).

٣- ابن خلكان, ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر(٦٨١ه/١٢٨٢م).

_ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان,تحقيق:احسان عباس(دار الثقافة,لبنان :د/ت).

٤- الزبيدي, محمد مرتضى الحسيني.

_ تاج العروس من جواهر القاموس,تحقيق:مجموعة من المحققين(دار الهداية:د/ت).

٥- ابن زولاق.

_فضائل مصر واخبارها وخواصها,تحقيق:علي محمد عمر(مكتبة الخانجي,القاهرة :١٤١٩ه /١٩٩٩م).

٦- السيوطي,جلال الدين عبد الرحمن.

_ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة,تحقيق:محمد ابو الفضل ابراهيم,ط ١(دار احياء الكتب العربية:١٣٨٧ه/١٩٦٧م).

٧_ ابو شامة, شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي(ت ٦٦٥ه/١٢٦٦م).

الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية,تحقيق:ابراهيم الزيبق,ط ١(مؤسسة الرسالة, بيروت :١٤١٨ه/١٩٩٧م).

٨_ ابن الصيرفي, امين الدين تاج الرياسة ابي القاسم علي بن منجب بن سليمان.

_الاشارة الى من نال الوزارة, تحقيق:عبد الله مخلص(مطبعة المعهد العلمي الفرنسي,القاهرة :١٣٤١ه/١٩٢٣م).

٩_ القرشي,ادريس عماد الدين(ت ٨٧٢ه/١٤٦٧م).

_ عيون الاخبار وفنون الاثار في فضائل الائمة الاطهار, تحقيق: مصطفى غالب,ط ٢ (دار الاندلس , بيروت:١٤٠٤ه/١٩٨٤م).

١٠_ القلقشندي,احمد بن علي بن احمد الفزاري(ت ٨٢١ه/١٤١٨م).

_ صبح الاعشى في صناعة الانشا,تعليق:عبد القادر زكار(وزارة الثقافة والارشاد القومي, دمشق :١٤٠٣ه/١٩٨٣م).

١١_ المسعودي,ابو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت٣٤٦ه/٩٥٧م).

مروج الذهب ومعادن الجوهر(باريس:١٣٣٤ه/١٩١٦م).

١٢_ مسلم, بن الحجاج ابو الحسين القشيري النيسابوري.

_ صحيح مسلم,تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي(دار احياء التراث,بيروت:د/ت).

١٣ – المقريزي, تقي الدين احمد بن علي(ت ٨٤٥ه/١٤٤١م).

_ اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا,تحقيق:جمال الدين الشيال,ط ٢(وزارة الاوقاف,مصر:١٤١٦ه/١٩٩٦م).

_ اغاثة الامة بكشف الغمة, تحقيق كرم حلمي فرحات,ط ١(عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية, القاهرة:١٤٢٧ه/٢٠٠٧م).

_ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية,تحقيق:محمد زينهم ومديحة الشرقاوي,ط١(مكتبة مدبولي,القاهرة:١٤١٨ه/١٩٩٧م).

١٤_ خسرو, ناصر.

_ سفر نامه(د/م:د/ت).

المراجع:

١– دراج, احمد.

_المماليك والفرنج في القرن(٩ه/١٥م)(دار الفكر العربي دار الجيل للطباعة,القاهرة :١٣٨١ ه/١٩٦١م).

٢_ سيد, ايمن فؤاد.

_الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد,ط١(الدار المصرية اللبنانية,بيروت :١٤١٣ه /١٩٩٢م).

٣_ الشيال, جمال الدين.

_مجموعة الوثائق الفاطمية,وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة,ط١(مكتبة الثقافة الدينية, القاهرة :(١٤٢٢ه/٢٠٠٢م).

٤_ الصاوي, أحمد السيد.

_ مجاعات مصر الفاطمية اسباب ونتائج,ط١(دار التضامن,بيروت:١٤٠٨ه/١٩٨٨م).

٥_ عامر, فاطمة مصطفى.

_ تاريخ اهل الذمة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي(مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب,القاهرة:د/ت).

٦_ عطا الله, خضر احمد.

_ الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي,ط١(دار الفكر العربي,القاهرة:د/ت).

٧_ عنان, محمد عبد الله.

_ الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية,ط٣(مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض:١٤٠٤ه/١٩٨٣م).

٨_ غيث, فتحي.

_ الاسلام والحبشة عبر التاريخ(مكتبة النهضة المصرية,القاهرة:١٣٨١ه/١٩٦١م).

٩_ اينبول, ستانلي.

_ سيرة القاهرة,ترجمة:حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن و وادوار حليم,ط٢(مطبعة السعادة, القاهرة ١٣٧٠:ه/١٩٥١م).

١٠_ ماجد,عبد المنعم.

_ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر,ط٤(دار الفكر العربي,القاهرة :١٤١٤ه /١٩٩٤م).

١١_ محمد, صبحي عبد المنعم.

_ العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين(العربي للنشر والتوزيع,القاهرة:د/ت).

البحوث المنشورة:

١_ تامرات,ت.

_ القرن الافريقي_ السليمانيون(المنتسبون الى الملك سليمان الحكيم) في اثيوبيا ودول القرن الافريقي (تاريخ افريقيا العام,مج ٤,اليونسكو:١٤٠٨ه/١٩٨٨م).

٢_ الموسوعة الحرة على شبكة المعلومات الدولية, مادة اردب؛www.ar.wikipedia.org.

الهوامش

(١) تقي الدين احمد بن علي المقريزي,المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار,تحقيق:محمد زينهم, مديحه الشرقاوي, راجعه:احمد احمد زيادة,ط١(مكتبة مدبولي القاهرة:١٤١٩م/١٩٩٨م):١/١٧٢.

(٢) يذكر أن تعداد جيش الفاطميين الذي دخل مصر زاد عن مئة ألف فارس غير المشاة؛محمد عبد الله عنان, الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية, ط٣ (مكتبة الخانجي بالقاهرة, دار الرافعي بالرياض :١٤٠٤ه /١٩٨٣م):٢٨.

(٣)احمد السيد الصاوي,مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج,ط١(دار التضامن,بيروت١٤٠٩ه/١٩٨٨م):٢٦.

(٤)أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي, مروج الذهب ومعادن الجوهر(باريس:١٣٣٥ه/ ١٩١٦م) :١/١٧٣.

(٥) الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن زولاق,فضائل مصر واخبارها وخواصها,تحقيق:علي محمد عمر(طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الاسرة:١٤٢٠ه/١٩٩٩م):٧٦؛ المسعودي, مروج الذهب:١/١٧٣؛المقريزي, المواعظ والاعتبار:١/١٧٧.

(٦) ابن زولاق,فضائل مصر:٧٦؛المقريزي,اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا,تحقيق:جمال الدين الشيال,ط ٢(وزارة الأوقاف,مصر:١٤١٧ه/١٩٩٦ م):١/١٣٨؛ منع المعز لدين الله المناداة بحد وفاء النيل إلا إذا بلغ الستة عشرة

ذراعا منعا لاحتكار الناس للغلال إذا ما عرفوا أن النيل لم يوفِ تلك السنة والمقريزي يثني على تلك السياسة ويصفها بالإبداع؛ المواعظ والاعتبار:١/١٧٨, ولا أراها إبداعا فمع تلك السياسة أصبح مجرد عدم المناداة بمقدار زيادة النيل يعني انه لم يبلغ الذراع السادسة عشرة ولم يوف, فموضوع العامل النفسي لنقصان النيل وتأثيره على الاحتكار غير قابل للعلاج فلو نادوا بان النيل لم يوف فزع الناس واحتكر التجار ولو صمتوا عرف الناس والتجار انه لم يبلغ الوفاء ففزع من يخاف الجوع واحتكر من يترصد الأزمات.

(٧) المسعودي, مروج الذهب:١/١٧٢؛ المقريزي,المواعظ والاعتبار:١/١٧٥.

(٨) ابن زولاق, فضائل مصر:٧٦؛المسعودي,مروج الذهب:١/١٧٢.

(٩) ابن زولاق, فضائل مصر:٩٤.

(١٠) المصدر نفسه؛ كذلك ظن كل من رأى طوال تاريخ مصر المعاصر المواطن المصري في طابور طويل املا بالحصول على اسطوانة الغاز السائل ان مصر تفتقر لانتاج الغاز وتبدد ذلك الظن بما كشفته ثورة مصر الاخيرة التي اطاحت بالرئيس محمد حسني مبارك بان مصر منتجة للغاز ولكنه يصدّر وباقل بكثير من سعر السوق الى الكيان الصهيوني بينما يعاد استيراد الغاز لسد حاجة المصريين وباسعار عالية!

(١١) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي, تاج العروس من جواهر القاموس,تحقيق:مجموعة محققين(دار الهداية, د/م: د/ت):٢٠/٧.

(١٢) انظر: اتعاظ:٧٨ ؛ وكل صفحات الكتاب.

(١٣) المقريزي, اتعاظ الحنفا:٢/٢٩٨.

(١٤) ستانلي لينبول, سيرة القاهرة, ترجمة:حسن ابراهيم حسن,علي ابراهيم حسن,ادوار حليم,ط٢(مكتبة النهضة المصرية, القاهرة:١٣٧٠ه/١٩٥١م):١٣١؛خضر احمد عطا الله, الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي, ط١(دار الفكر العربي,القاهرة:١٤١٠ه/١٩٨٩م):٩٠.

(١٥) احمد بن علي بن احمد الفزاري القلقشندي,صبح الاعشى في كتابة الانشا,تحقيق:عبد القادر زكار(وزارة الثقافة,دمشق:١٤٠١ه/١٩٨١م):٣/٥٧١_٥٧٦.

(١٦) المصدر نفسه:٣/٥٧٦.

(١٧) المصدر نفسه:٣/٦٠١.

(١٨) المقريزي, اتعاظ الحنفا:٣/٣٤٣ .

(١٩) القلقشندي, صبح الاعشى:٣/٥٨٣-٦٠١؛ ذكر القلقشندي في هذه الصفحات تفاصيل احتفالات الفاطميين بافاضة.

(٢٠) المصدر نفسه:٣/٥٩١،٥٩٠.

(٢١) المصدر نفسه:٣/٥٩٢-٥٩٥.

(٢٢) المصدر نفسه:٣/٥٩٥،٥٩٦.

(٢٣) عطا الله ,الحياة الفكرية:٩١.

(٢٤)عبد المنعم ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر , ط٤(دار الفكر العربي, القاهرة:١٤١٤ه /١٩٩٤م) :٢٥٦؛عطا الله,الحياةالفكرية:٩٢.

(٢٥) المرجع نفسه .

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) سفر نامه(د/م:د/ت):٢٢.

(٢٨) اتعاظ الحنفا:٣/٣٤٣.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) ماجد, ظهور الخلافة الفاطمية:٣١٦.

(٣١) اتعاظ الحنفا:٢/٢٩٤؛ كذلك يصف ناصر خسرو تخت الخليفة والذهب الذي يغلفه من جهاته الثلاث وذلك حين دخل القصر بنفسه في رحلته للقاهرة سنة ٤٣٩ه/١٠٤٨م؛ سفر نامة:٢٧.

(٣٢) المقريزي, اتعاظ الحنفا:١/١٤٦.

(٣٣) المصدر نفسه:١/٢٥٢.

(٣٤) المصدر نفسه:١/٢٩٥،٢٩٦.

(٣٥) ادريس عماد الدين القرشي, عيون الاخبار وفنون الاثار في فضائل الائمة الاطهار, تحقيق وتقديم: مصطفى غالب, ط٢(دار الاندلس,بيروت:١٤٠٤ه/١٩٨٤م):٢٩٤؛ تجدر الاشارة الى ان هذا الكتاب يبالغ ويغالي في تقديس الخلفاء الفاطميين وفيه نفس مذهبي بغيض تجاه الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وبعض الصحابة والخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم جميعا حيث يذكر روايات ويصفهم بصفات ما له عليها دليل ولا برهان ولا ذكرها غيره ممن انصف الرجال واتبع منهجا علميا حياديا في كتابة التاريخ .

(٣٦) ابو القاسم علي بن منجب بن سليمان المصري المشهور بابن الصيرفي, الاشارة الى من نال الوزارة, تحقيق: عبد الله مخلص(المعهد العلمي الفرنس, القاهرة:١٣٤٣ه/١٩٢٤م):٣١.

(٣٧) جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي,النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة,قدم له وعلق عليه:محمد حسين شمس الدين,ط١(دار الكتب العلمية,بيروت:١٤١٣ه/١٩٩٢م):٤/١٩٥؛ يبدو لي ان هذه الارقام فيها شي من المبالغة فلا يتصور ان يكون لانسان وان كان ابنة خليفة واخت خليفة اربعون الف ثوب الا انه يبقى الترف امراً مؤكداً مهما كان تقديرنا لحجم المبالغة والزيادة في هذه الارقام .

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المقريزي, اتعاظ الحنفا:٢/١٥.

(٤٠) المقريزي, اغاثة الامة بكشف الغمة, دراسة وتحقيق: كرم حلمي فرحات,ط١(عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية,القاهرة:١٤٢٨ه/٢٠٠٧م):٨٩.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) النجوم الزاهرة:٤/٢٠١.

(٤٣) اتعاظ الحنفا:١/٩٢،٢٤٧.

(٤٤) المصدر نفسه:٢/١٣،١٢.

(٤٥) المصدر نفسه:٢/١١٥.

(٤٦) ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الاثير, الكامل في التاريخ, تحقيق:عبد الله القاضي, ط٢(دار الكتب العلمية,بيروت:١٤١٥ه/١٩٩٥م):٨/٢٢٠.

(٤٧) المقريزي, المواعظ والاعتبار:٢/٣٩.

(٤٨) عطا الله, الحياةالفكرية:٩٥.

(٤٩) المقريزي,اتعاظ:٢/١٨١.

(٥٠) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٣٩.

(٥١) المقريزي,اتعاظ الحنفا:١٤٤/٢.

(٥٢) المصدر نفسه:١٧٢/٢.

(٥٣) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٤٠/٢.

(٥٤) المصدر نفسه.

(٥٥) ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٧٥/٥.

* لم يكن الترف والانفاق السبب الوحيد لتلك الازمات كما ينبين في المطالب القادمة .

(٥٦) القرشي, عيون الاخبار:٣٢٤.

(٥٧) عطا الله, الحياة الفكرية:٩٥.

(٥٨) المقريزي, اتعاظ الحنفا:٢٤٠/٢.

(٥٩) المصدر نفسه:٢٩٤/٢.

(٦٠) ماجد,ظهور الخلافة الفطمية:٣١٦.

(٦١) سفر نامة:١٩.

(٦٢) المصدر نفسه:١٩،٢١.

(٦٣) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢٦٥/٢؛اورد المقريزي هذه الرواية رغم انه متعاطفا مع الفاطميين ويدفع عنهم الطعن في نسبهم ويدافع عنهم ويبرر الطعن بان من طعن هم المؤخون المشرقيون تاثرا بالخلافة العباسية,كما اوردها ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٢١/٥,وهذا ما يبعد عني تهمة التمذهب والافتراء فالله اسال المنهج العمي الحيادي في ما اكتب.

* ستاتي احداث هذه الفتنة مفصلة في مطلب قادم.

(٦٤) اتعاظ الحنفا:٢٦٥/٢.

(٦٥) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة:٥/٥.

(٦٦) المصدر نفسه:٢٧٩/٥؛ابو العباس شمس الدين احمد بن محمدبنابي بكر بن خلكان,وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان,تحقيق:احسان عباس(دار صادر,بيروت:د/ت):٢٣٧/١.

(٦٧) عطا الله,الحياةالفكرية:٩٠.

(٦٨) القلقشندي, صبح الاعشى:٥٩٨/٣.

(٦٩) المصدر نفسه.

* الاردب:قرابة الخمسة وثمانين كيلو غرام؛انظر:الموسوعة الحرة على شبكة المعلومات الدولة مادة اردب؛www.ar.wikipedia.org.

(٧٠) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢٣٩/٢.

(٧١) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢٥٠/٢-٢٥٤.

(٧٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢٦٩/١.

(٧٣) المصدر نفسه:٢٥٢/١.

(٧٤) المصدر نفسه:٢٧١/١.

(٧٥) ابن الصيرفي,الاشارة:٢٣.

(٧٦) ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:١٢٠/٤؛جلال الدين عبد الرحمن السيوطي,حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة,تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم,ط١(دار احياء الكتب العربية,د/م:١٣٨٧ه/١٩٦٧م):٦٠١/١.

(٧٧) القلقشندي,صبح الاعشى:٣/٥٩١.

(٧٨) ابن الصيرفي,الاشارة:٢٨:ابن خلكان,وفيات الاعيان:١/٢٧٠.

(٧٩) جمال الدين الشيال,مجموعة الوثائق الفاطمية,وثائق الخلافة وولايةالعهد والوزارة,ط١(مكتبة الثقافة الدينية,القاهرة:١٤٢٣ه/٢٠٠٢م):١٥٠.

(٨٠) المقريزي,اتعاظ:٢/٣٣١.

(٨١) المصدر نفسه:٣/٧٠.

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) المصدر نفسه.

(٨٤) المصدر نفسه:٣/١٥٩.

(٨٥) المصدر نفسه:٣/٢٢١،٢٢٢.

(٨٦) المصدر نفسه:٣/٢٨٨.

(٨٧) الزبيدي,تاج العروس:١١/٧١،٧٢.

(٨٨) مسلم ابن الحجاج ابو الحسينالقشيري النيسابوري المشهور بمسلم,صحيح مسلم,تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي(دار احياء التراث العربي,بيروت:د/ت):١١/١٢٢٧,باب تحريم الاحتكار في الاقوات,رقم الديث:١٦٠٥.

(٨٩) المواعظ والاعتبار:١/١٧٢.

(٩٠) المقريزي,اغاثةالامة:٩١،٩٢.

(٩١) المصدر نفسه:٩٢.

(٩٢) اتعاظ الحنفا:٢/١٣٥،١٣٦.

(٩٣) المصدر نفسه.

(٩٤) المصدر نفسه.

(٩٥) المصدر نفسه:٢/١٦٣-١٦٦.

(٩٦) المصدر نفسه:٢/١٦٦.

(٩٧) ناصر خسرو,سفر نامة:٢٧.

(٩٨) المصدر نفسه:٢/٢٢٥.

(٩٩) ماجد,ظهور الخلافة:٣٠٤

(١٠٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٢٥.

(١٠١) المصدر نفسه:٢/٢٢٤؛ماجد,ظهور الخلافة:٣٠٤.

(١٠٢) المرجع نفسه؛من االغريب ان يعتبر عبد المنعم ماجد ما يخزنه الخليفة المستنصر احتياطيا للبلاد وهو نفسه ذكر انه كان يشتريه وينتظر ارتفاع الاسعار ويجبر التجار على البيع بسعره فكيف يكون احتياطيا للبلاد؟وهو يحتكر ويباع بسعر عال وربحه يدخل جيب الخليفة الخاص في وقت ياكل الناس فيه الجيف.

(١٠٣) المقريزي,اغاثة الامة:٩٦.

(١٠٤) للاطلاع على تفاصيل الشدة المستنصرية انظر:المقريزي,اغاثة الامة:٩٩؛المقريزي,المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٧٩-٢٩٨.

(١٠٥) المقريزي,اغاثة الامة:٩٩.

(١٠٦) المصدر نفسه:١٠٠.

(١٠٧) المصدر نفسه:١٠١.

(١٠٨) المصدر نفسه:١٠٢.

(١٠٩) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٤٤.

(١١٠) المقريزي,المواعظ والاعتبار:١/١٧٨.

(١١١) المقريزي,اغاثة الامة:٩٥.

(١١٢) الصاوي,مجاعات مصر الفاطمية:١٤٢.

(١١٣) المرجع نفسه:١٤٣.

(١١٤) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٩٣،٩٦.

(١١٥) الصاوي,مجاعات مصر الفاطمية:١٣١.

(١١٦) المرجع نفسه:١٤٢.

(١١٧) المرجع نفسه:١٤٣.

(١١٨) المرجع نفسه:١٤٣،١٤٤.

(١١٩)شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي المشهور بابي شامة,الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية,تحقيق: ابراهيم الزيبق,ط١(مؤسسة الرسالة,بيروت:١٤١٧ه/١٩٩٧م):٢/٢١٥.

(١٢٠) ناصر خسرو,سفر نامة:١٩.

(١٢١) ايمن فؤاد سيد,الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد,ط١(الدار المصرية اللبنانية,القاهرة:١٤١٢ه/ ١٩٩٢م):٢٩٢.

(١٢٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٣٠٠.

(١٢٣) سيد,الدولةالفاطمية:٢٩٢.

(١٢٤) ذكر السيد الصاوي ان المجاعات ادت الى اهمال مشاريع الري؛انظر:مجاعات مصر الفاطمية:١٣٧.

(١٢٥) :٧٨.

(١٢٦) ابن زولاق,فضائل مصر:٩٤.

* ظئر:العاطفة على غير ولدها او المرضعة لغير ولدها وظاءرت المراة أي اتخذت ولدا ترضعه؛الزبيدي,تاج العروس:١٢/٤٦٠،٤٦٢.

(١٢٧) ابم زولاق,فضائل مصر:٩٤.

(١٢٨) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٧/٤٧٩؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٢.

(١٢٩) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٧/٤٧٩.

(١٣٠) المصدر نفسه.

(١٣١) المقريزي:اتعاظ الحنفا:٢/١٠،١١.

(١٣٢) المصدر نفسه:٢/٩.

(١٣٣) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٧/٤٨٠.

(١٣٤) عنان,الحاكم بامر الله:٩٦.

(١٣٥) المقريزي,اتعاظ:٢/٢٥.

(١٣٦) اغاثة الامة:٨٩.

(١٣٧) ابنالاثير,الكامل في التاريخ:٧/٤٨١،٤٨٢؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٣٦،٤٢،٨٦.

(١٣٨) عنان ,الحاكم بامر الله:١١٧.

(١٣٩) للاطلاع على تفاصيل اجراءاته انظر:المقريزي,اغاثة الامة:٩٢.

(١٤٠) ناصر خسرو,سفر نامة:١٨؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٥٢،٥٣؛السيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٢؛سيد,الدولة الفاطمية :١٠٢.

(١٤١) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٥٣؛

(١٤٢) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٨/١٢٩.

(١٤٣) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٨/٤٢،١٢٨.

(١٤٤) ماجد,ظهور الخلافة:٣٠٤.

(١٤٥) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٨/١٢٨،١٢٩؛السيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٣.

(١٤٦) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١١٣؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٤/١٨٢؛السيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٣.

(١٤٧) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٨/١٢٩؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١١٥،١١٦؛السيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٣.

(١٤٨) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٨/١٣١؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١١٥،١١٦حالسيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٣.

(١٤٩) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٩٧.

(١٥٠) عنان,الحاكم بامر الله:٢٨.

(١٥١) ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية:١٠٧-١١٠.

(١٥٢) ناصر خسرو,سفر نامة:١/٢٣.

(١٥٣) المقريزي,اتعاظ الحنفا:١/١٣١.

(١٥٤) المصدر نفسه:١/١٤٣.

(١٥٥) المصدر نفسه:١/١٤٥.

(١٥٦) المصدر نفسه:١/١٤٨.

(١٥٧) القران الكريم,سورة النمل:الاية ٣٤.

(١٥٨) ذهب الى ذلك السيد الصاوي حيث علل ثورات الجند ونهبهم بالجوع؛مجاعات مصر الفاطمية:٨٠.

(١٥٩) ابن الصيرفي,الاشارة لمن نال الوزارة:٣٥؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٣/٤٠٧.

(١٦٠) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٣٩،٤٠؛وانظر:المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٧١،١٧٢.

(١٦١) المصدر نفسه:٢/١٧٧.

(١٦٢) المصدر نفسه.

(١٦٣) المصدر نفسه:٢/١٨٠.

(١٦٤) المصدر نفسه.

(١٦٥) ابن الصيرفي,الاشارة لمن نال اوزارة:٣٨؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٠؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٩٠،١٩١،١٩٥،١٩٦.

(١٦٦) المقريزي,اغاثة الامة:٩٦؛وانظر:المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٦٢.

(١٦٧) سيد,الدولة الفاطمية في مصر:١٣٩؛للاطلاع على اسماء وزراء المستنصر وفترات ولاياتهم انظر:ابن الصيرفي,الاشارة لمن نال الوزارة:٥٢.

(١٦٨) المقريزي,اغاثة الامة:٩٦.

(١٦٩) ابن الصيرفي,الاشارة لمن نال الوزارة:٥٢–٥٤.

(١٧٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٣٠.

(١٧١) المصدر نفسه:٢/٢٦٣؛المقريزي,اغاثة الامة:٩٧.

(١٧٢) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٤.

(١٧٣) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٦٥،٢٦٦؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٢١.

(١٧٤) المقريزي,اغاثة الامة:٩٨.

(١٧٥) ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٥.

(١٧٦) المقريزي,اغاثةالامة:٩٨.

(١٧٧) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٧٣.

(١٧٨) المصدر نفسه.

(١٧٩) المصدر نفسه:٧٣،٧٤.

(١٨٠) المصدر نفسه٢٧٥،٢٧٦.

(١٨١) المصدر نفسه:٧٨–٣٠٣؛المقريزي,اغاثة الامة:٩٨،٩٩.

(١٨٢) المقريزي,اغاثةالامة:٩٨،٩٩.

(١٨٣) ابن الصيرفي,الاشارة:٥٤؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٤؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٣١١،٣١٢.

(١٨٤) عد السيد الصاوي المجاعات سببا لضعف الخلافة الفاطمية وبوب ضعف الخلافة كنتيجة من نتائج مجاعات مصر الفاطيمة؛مجاعات مصر الفاطمية:٧٦،٧٧.

(١٨٥) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٢٣٣.

(١٨٦) الشيال,مجموعة الوثائق الفاطمية:٣٥.

(١٨٧) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٨٥.

(١٨٨) المصدر نفسه:٣/١١.

(١٨٩) سيد,الدولة الفاطمية:١٥٤.

(١٩٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٧؛الشيال,مجموعة الوثائق الفاطمية:٥٦.

(١٩١) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٤؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٣،١٤؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٢/٤٥٠؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/١٤٠–١٤٥.

(١٩٢) المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٥.

(١٩٣) المصدر نفسه؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٣١.

(١٩٤) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٣٧؛سيد,الدولة الفاطمية:١٦١،١٦٢.

(١٩٥) المرجع نفسه:١٦٣.

(١٩٦) ابن خلكان,وفيات الاعيان:٢/٤٥٠؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٦٠؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٥.

(١٩٧) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٧٦،٧٧؛سيد,الدولة الفاطمية:١٦٧،١٦٨.

(١٩٨) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٨٤،٨٥،١٠٨؛سيد,الدولة الفاطمية:١٧٢،١٧٣..

(١٩٩) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١١٠؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٢٢٣.

(٢٠٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٢٠-١٢٨؛سيد,الدولةالفاطمية:١٧٤،١٧٥.

(٢٠١) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٢٨.

(٢٠٢) هناك بعض الروايات عن ان الامر قد ترك وريثا عمره اشهر ولكن الحافظ اخفى امره؛سيد,الدولة الفاطمية:١٨٥،١٨٦؛ورواية تشير بان ولي العد المنتظر في بطن امه قد ولد فعلا وهربته امه بقفة مغطات بلسق الى ناحية القرافة واصبح يعرف بقفيفة ولم يظهر امره؛انظر:المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٤٦؛فان صحت احدى هاتين الروايتين يكون هذاانقلاب ثان في تاريخ الخلافة الفاطمية على قاعدة توريث ابن الامام.

(٢٠٣) للاطلاع على التفاصيل انظر:المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٣٧-١٣٩؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٣/٤٥؛السيوطي,حسن المحاضرة:١/٦٠٨.

(٢٠٤) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٣٩.

(٢٠٥) سيد,الدولة الفاطمية:١٨٢.

(٢٠٦) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٤١.

(٢٠٧) المصدر نفسه:٣/١٤٣.

(٢٠٨) المصدر نفسه:٣/١٤٥؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٥.

(٢٠٩) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٤٩-١٥٤؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٢٣٧-٢٤٦.

(٢١٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٥٥،١٥٩؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٥؛سيد,الدولة الفاطمية:١٩٥.

(٢١١) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٥٩-١٦٢.

(٢١٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٧١-١٧٤؛سيد,الدولة الفاطمية:٢٠٣،٢٠٤.

(٢١٣) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٨٣،١٨٤؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٢٧٢؛سيد,الدولة الفاطمية:٢٠٤.

(٢١٤) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٨٩؛المقريزي,المواعظ والاعتبار:٢/٤٦.

(٢١٥) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٩٣.

(٢١٦) ابن خلكان,وفيات الاعيان:٣/٤١٦؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/١٩٣-١٩٩؛سيد,الدولة الفاطمية:٢٠٨،٢٠٩.

(٢١٧) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٣٩٤؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٠٦/٢٠٥؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٢٨٤

(٢١٨) اتعاظ الحنفا:٣/٢٠٦.

(٢١٩) المصدر نفسه:٣/٢٠٩.

(٢٢٠) برا اسامة بن منقذ نسفه من كل ما نسب اليه في هذه القصة؛انظر:سيد,الدولة الفاطمية:٢١٣.

(٢٢١) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٠٩.

(٢٢٢) ابو شامة,الروضتين:١/٣١٢؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٣/٤٩٢؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢١٣،٢١٤؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٨٤- ٢٩٦.

(٢٢٣) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٣٩٥؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٢/٥٢٦؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢١٥-٢١٧.

(٢٢٤) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٤٤٩؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٢١.

(٢٢٥) ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية:٣٥٨.

(٢٢٦) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٢٢؛ابن تغري بردي,النجوم الزاهرة:٥/٣٠٠.

(٢٢٧) ابن خلكان,وفيات الاعيان:٣/١١٠؛سيد,الدولة الافطمية:٢١٦.

(٢٢٨) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٣٩.

(٢٢٩) المصدر نفسه:٣/٢٤٣.

(٢٣٠) المصدر نفسه.

(٢٣١) المصدر نفسه:٣/٢٤٤.

(٢٣٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٤٦.

(٢٣٣) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٣٩٥؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٢/٥٢٦؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢١٥–٢١٧.

(٢٣٤) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٤٦٠؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٥٨.

(٢٣٥) ابو شامة,الروضتين:١/٤٠٧،٤٠٨؛ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٤٦٥،٤٦٦؛ابن خلكان,وفيات الاعيان:٢/٤٤٠؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٥٧–٢٧٠.

(٢٣٦) للاطلاع على تفاصيل سقوط الدولة الفاطمية انظر:ابو شامة,الروضتين:١/٤٠٧–٤١١ و ٢/١٣،١٤ ؛ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٩/٤٦٦ و ١٠/٣–٣٥؛المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٢٦٦–٣١٩؛سيد,الدولة الفاطمية:٢٢٤–٢٣٧.

(٢٣٧) ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية:٨٧؛سيد,الدولة الفاطمية:٩٥.

(٢٣٨) ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية:٢٣٦.

(٢٣٩) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٣/٣٣٧.

(٢٤٠) ماجد,ظهور الخلافة الفاطمية:٢٣٦.

(٢٤١) عطا الله,الحياة الفكرية:١٣٦.

(٢٤٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٨٨.

(٢٤٣) المصدر نفسه:٢/١٨٠.

(٢٤٤) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٩٣.

(٢٤٥) المصدر نفسه:٢/٢٣٣.

(٢٤٦) سيد,الدولة الفاطمية:١٣٢.

(٢٤٧) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢٣٣.

(٢٤٨) سيد,الدولة الفاطمية:١٣٢.

(٢٤٩) صبحي عبد المنعم محمد,العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والايوبيين(العربي للنشر والتزيع,القاهرة:د/ت):٨١.

(٢٥٠) المقريزي,اتعاظ الحنفا:١/١٢٢.

(٢٥١) محمد,العلاقات بين مصر والحجاز:٨٣.

(٢٥٢) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/٢١٦.

(٢٥٣) المصدر نفسه:٢/٢٢٢.

(٢٥٤) ابن الاثير,الكامل في التاريخ:٧/٣٦٢.

(٢٥٥) المقريزي,اتعاظ الحنفا:١/٢٤٦.

(٢٥٦) المصدر نفسه:٢/١٦٤.

(٢٥٧) المصدر نفسه:٢/١٦٦.

(٢٥٨) المصدر نفسه:٢/١٦٩.

(٢٥٩) المصدر نفسه:٢/٣٠٣،٣٠٤.

(٢٦٠) فاطمة مصطفى عامر,تاريخ اهل الذمة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي(مطابع الهيئة المصرية للكتاب, القاهرة: د/ت) :١/١٧٣.

(٢٦١) المقريزي,اتعاظ:٢/٧٥.

(٢٦٢) المصدر نفسه:٢/٧٥-٩٢؛عامر,تاريخ اهل الذمة:١/٢٠٣-٢٠٩؛يحسب للحاكم غيرته على الدين ولكن السياسة تقوم على الحكمة والنظر في مالات الامور ولا تصح معها الحمية غير المحسوبة.

(٢٦٣) المقريزي,اتعاظ الحنفا:٢/١٧٦.

(٢٦٤) المصدر نفسه:٢/٢٣٠.

(٢٦٥) ماجد,ظهور الخلافة:٣٠٤.

(٢٦٦) المصدر نفسه:٣/١٦٥.

(٢٦٧) نقلا عن:الصاوي,مجاعات مصر:٣٣.

(٢٦٨) اتعاظ الحنفا:٣/١٦٥.

(٢٦٩) انظر:فتحي غيث,الاسلام والحبشة عبر التاريخ(مكتبة النهضة المصرية,القاهرة:١٣٨٠ه/١٩٦١م):١٠٥؛احمد دراج,المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي(دار الفكر العربي,دار الجيل للطباعة,القاهرة:١٣٨٠ه/١٩٦١م)٦٧؛ت,تامرات,القرن الافريقي-السليمانيون المنتسبون الى الملك سليمان الحكيم في اثيوبيا ودول القرن الافريقي,بحث منشور في تاريخ افريقيا العام,مج٤,(اليونسكو:د/ت):٤٤٩.